الفصل الرابع

التفكيكية و مارتن هايدجر

ويشتمل على :

- تمهيد.

أولاً - ماهية و مقولات النقد التفكيكي.

ثانياً - تأثير مارتن هايدجر على التفكيكية.

ثالثاً - التفكيكية تحت المجهر.

- التعقيب.

تمهيـــد:

بعدما أثبتنا فى الفصل السابق، الجذور البنيوية التى تمتد منذ كانط، نجد تاريخياً و فلسفياً تأتى التفكيكية لتنقد البنيوية و تفككها، لندخل مع التفكيك فى مرحلة ما بعد الحداثة، و تواصلاً مع ما سبق من بحثنا و كشفنا عن جذور الحداثة و تتبعاً لما أدت إليه تلك الجذور الفكرية، نجد الضرورة البحثية تقتضى أن نخصص هذا الفصل لبحث استراتيجية التفكيك، و ذلك للتعرف على التفكيكية و كيفية معالجتها النقدية للنصوص الأدبية من جهة، و من جهة أخرى للبحث عما إذا كان ثمة تواصلٌ لجذور كل من البنيوية و التفكيك ؟ و هل للتفكيكية جذور تمتد إلى مفكرين أمثال نيتشه و هايدجر ؟ خصوصاً و أن لكل من الفيلسوفين أفكار و أراء تجعل من أفكارهما نواة مبشرة بأهم ملامح فكر ما بعد الحداثة.

بالرغم من اختلاف مقومات فكر ما بعد الحداثة و استقلاله عن البنيوية فهذا لا يعنى عدم تواصلهما، فهل يخفى هذا الاختلاف ما يؤيد تواصل جذورهما ؟، و ما هى أهم تلك الجذور المشتركة ؟ و ما أهمية الجذور الفكرية البنيوية بالنسبة للتفكيكية ؟.

أما بالنسبة لكل من نيتشه و هايدجر فنجد لديهم أفكاراً تسبق عصرهما، خصوصاً عن اللغة و المعنى، و علاقة الدال بالمدلول، مما يقترب من الآراء التى تعتمد عليها التفكيكية، و لهذا وجب علينا بحث هذا التقارب لنرى مدى التوافق بين كل منهما و التفكيكية، و هل لأفكار نيتشه و هايدجر الأثر الفعال و المباشر على فكر ما بعد الحداثة و خصوصاً التفكيكية ؟ ما هى أهم تلك الأفكار التى أثر بها أو سبق بها كل من نيتشه و هايدجر التفكيكية ؟.

سنبحث لكل تلك الأسئلة عن إجابات، من خلال تناولنا لنقاط هذا الفصل، فنبدأ بدراسة التفكيك أولاً للتعرف عليه، ولمعرفة ما استبقى عليه من جذور بنيوية و كيفية نقد التفكيك للبنيوية، و ثانياً ندرس اثر بعض أفكار نيتشه و هايدجر على التفكيك، و ثالثاً نمحص التفكيكية كاستراتيجية نقدية تفكك الفكر و لا ترى فائدة من إعادة بنائه، و أخيراً نعقب على ما بحثناه لنر ما توصلنا إليه من إجابات لأسئلة هذا الفصل.

أولاً : ماهية و مقولات النقد التفكيكى :

و تشمل:

أ- بداية ظهور التفكيكية على أعقاب و أنقاض البنيوية.

بدأً من منتصف خمسينيات القرن العشرين، بدأ المد البنيوى فى أوربا و الولايات المتحدة الأمريكية، حيث صدرت أهم مؤلفات ليفى ستراوس و بارت و لاكان، و بحث رومان ياكبسون، الذى أفسح المجال الأمريكى أمام البنيوية، و ذلك فقط حتى منتصف السبعينيات من نفس القرن.

و سرعان ما انحصر الانتشار و التيار البنيوى، نتيجة لبحث جاك دريدا (البنية و العلامة و اللعب فى خطاب العلوم الإنسانية)[*] و هو الذى جاء كعلامة مناقضة للبنيوية، و تفجيراً للشك فيها من داخلها، ناقضاً مسلمات البنية كنسق مغلق وحيد المركز، بل و هدماً لأقانيم المنشأ و الأصل و العلة والغاية، و معلناً فى نفس الوقت عن بداية عصر نقد التفكيك أو التفكيكية، كنظرية نقدية بديلة للنقد البنيوى. (١)

وبعد ذلك تتسع الدوائر والساحة الفكرية لتتقبل التفكيكية، و خصوصاً بعدما نشر دريدا ثلاثة من كتبه – بعد أقل من عام عن بحثه الأول –

(*) ألقى جاك دريدا هذا البحث فى مؤتمر " لغات النقد و علوم الإنسان " الذى عقده مركز الدراسات الإنسانية فى جامعة جونز هوبكنز، بالولايات المتحدة، فى عام ١٩٦٦م، و حضره لفيف من رجال البنيوية والنقد الأدبى و الفلسفة و علماء اللغة، مما كان يؤكد على تداخل و تمازج النقد الأدبى مع الفلسفة و غيرها من العلوم الإنسانية من منظور بينى يتجاوز الحدود المعرفية، التى كانت قبل ذلك متجاورة، و بعد ذلك أصبحت سمة لمنهجية البحث فى العلوم الإنسانية.

(١) جاك دريدا : " البنية، العلامة، اللعب فى خطاب العلوم الإنسانية " ترجمة جابر عصفور و مراجعة هدى وصفى، مجلة فصول العدد (٤)، عام ١٩٩٣م، ص (٢٣١).

وصدرت الكتب بالفرنسية عام ١٩٦٧م، و هى : (الصوت و الظاهرة) عن فلسفة هوسرل، و (فى علم الكتابة أو الكتابية) و فيه يدمر نزعة مركزية الصوت، و أخيراً (الكتابة و الاختلاف)، و قد تضمن بحثه الذى ألقاه منذ عدة شهور فى جامعة جونز هوبكنز، عن البنية و العلامة فى خطاب العلوم الإنسانية، بعد التنقيح الذى فرضته المناقشة فى المؤتمر، و تلك المناقشات نشرت بعد ذلك بالإنجليزية مع البحث فى عام ١٩٧٠م، تحت عنوان "المناظرة البنيوية، لغات النقد و علوم الإنسان ".(١)

و تجنباً منا لتكرار الجذور التفكيكية الممتدة فى التربة البنيوية، و التى سبق و ذكرناها، و لذا سنكتفى هنا بمقتطفات من ذلك البحث الذى ألقاه دريدا ليدشن به التفكيكية على أنقاض البنيوية.

١. تفتيت مركز البنية و استبداله باللعب الحر للعلامات(*)، و لمعرفة سبب هجوم دريدا على المركز نجده يقول : "أن المركز يَغلقُ بالمثل اللعب الذى يفتتحه و ييسره، إن المركز هو النقطة التى لا يغدو فيها استبدال المضامين أو العناصر أو المصطلحات ممكناً... إن الفكر التقليدى المرتبط بالبنية كان يمكن له أن يقول إن المركز على نحو يتضمن مفارقة هو داخل البنية و خارجها. إن المركز فى وسط الوحدة الشاملة **Totality**. و مع ذلك و حيث إنه لا ينتمى إلى الوحدة الشاملة

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٣٢).

(*) المقصود باللعب الحر للدوال (و هو مصطلح تفكيكى) أنه بعد انفصال الدال عن مدلوله قام دريدا بأخذ الفكرة إلى أقصى مدى، بحيث أصبح الدال يقاوم ارتباطه بأى مدلول و يهرب و يراوغ فبدلاً من أن يُشير لمدلول أصبح يُشير إلى عدد من الدوال الجديدة، من منطلق أنه لا وجود إلا للغة فقط، و من منطلق أن اللغة مستقلة عنا و هى ليست وسيلة للتعبير عن قصد أو معنى مُحدد، و حتى لا يموت الدال بجموده فى تحديد معنى واحد، فلعبه الحر يمكنه من المشاركة فى إمكانيات عديدة للمعانى .

(فهو ليس جزءاً منها)، فإن مركز الوحدة الشاملة خارجها فالمركز ليس المركز".[1]

و بذلك يكون دريدا قد هدم مركز البنية و مركزية الفكر التقليدى، بإظهاره مثل هذا التناقض الذى انطوى عليه الفكر التقليدى.

٢. يكشف أيضاً عن التناقض الذى يتضمنه مفهوم العلامة، حيث لا يمكنه تجاوز التعارض القائم بين المحسوس و المعقول فى ربط العلامة بين الدال و مدلوله، و دريدا يرى أن ليفى ستراوس "سعى لمجاوزة التعارض بين المحسوس و المعقول بواسطة وضع (نفسه) منذ البداية على مستوى العلامات، فإن ضرورة فعله، و قوته و صحته لا يمكن أن تنسينا أن مفهوم العلامة لا يمكن أن يجاوز بنفسه أو يتجنب التعارض بين المحسوس و المعقول. إن مفهوم العلامة يحتمه هذا التعارض".[2]

٣. يهدم دريدا المركز فى البداية، دون أن يكون لديه منهجية بديلة، بل و يرفض مقاربة فكرة اللامركزية التى آلت إليها التفكيكية على يده فيما بعد، و جاء ذلك على لسان دريدا فى إجابة عن سؤال أحد مناقشيه فى المؤتمر بعدما ألقى بحثه، قائلاً : "و أنا نفسى أسأل عما إذا كنت أعرف إلى أين أمضى. و لذلك سأجيب عن سؤالك بأن أقول أولاً إننى أحاول تحديداً أن أضع نفسى فى نقطة لا أعرف عندها إلى أين أمضى. و فيما يتصل بهذا الفقد للمركز، أرفض أن أقارب فكرة ((اللامركز)) فهى لم تعد مأساة فقد المركز – بمعنى الحزن التقليدى – و لا أقصد القول إننى فكرت فى مقاربة فكرة تجعل من هذا الفقد للمركز نوعاً من الإيجاب".[3]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٣٤).

(٢) جاك دريدا : " البنية، العلامة، اللعب فى خطاب العلوم الإنسانية "، ص (٢٣٦).

(٣) المرجع السابق : ص (٢٤٦).

لكن من الواضح أن دريدا لم يجد مخرجاً آخر، فلجأ للقول فى النهاية باللامركزية، ظناً منه أنه بذلك الفقد للمركز يكون قد تخلص من أى تسرب للميتافيزيقا، حتى لو أدى فقد المركز بالفكر الغربى و البشرى من بعده للسقوط فى هاوية الفوضى و التشتت، اللتين تشكلان أهم سمات التفكيكية و فكر ما بعد الحداثة.

و بهذا التفتيت للبنية و المركز، من لدن دريدا، و بموجة الشك العارمة التى أطلقها متأثراً بأفكار نيتشه و هيدجر، و مع بداية عصر التفكيكية، مَثلَ كل ذلك شبه أزمة (أو أزمة) جديدة للفكر الغربى(*)، ليراجع جميع مسلماته و أسسه و ثوابته، بعدما تزلزل من جراء كشف زيف مسلماته، و ما تضمنه خطابه من تناقضات، طالت الثوابت و المنهجية التى انتهجها، و انتهت به إلى ما بعد الحداثة. و كل هذا تمثل فى السؤال الذى فرضته المحنة (ما بعد الحداثة، أو أزمة كشف زيف منهجية الحداثة)، و ضخامة الأزمة تتمثل فى، أن السؤال نفسه تحول إلى شعار، أو مسمى للفترة التى تتلو الحداثة، (ما بعد الحداثة) ؟، بمعنى ماذا بعد الحداثة، أو ما المخرج من بعد الحداثة ؟، و مهما تعددت صيغ الأسئلة فجميعها يجسد تلك الأزمة، و يعكس حالة التخبط و الفوضى، و التشتت و التمزق، التى حلت بالفكر الغربى، فى مرحلة ما بعد الحداثة.

(*) د / جورج زيناتى : " تأثير البنيوية فى الفلسفة ال << بلا مركز >> عند جاك دريدا " مقال فى مجلة الفكر العربى المعاصر العددان (٦، ٧) فى تشرين (الأول و الثانى)، لبنان بيروت، ١٩٨٠م، ص (٨٤) .

وهذا ما حدا بالناقد الأمريكى(*) (مصرى الأصل) "أيهاب حسن "للقول عن ما بعد الحداثة و عن تعريفها (باستحالة التحديد)، و يعرض لمجموعة من المشكلات التصورية التى تشكل جوهر تعريفات الحداثة ومنها:

١. لا يجمع النقاد على تعريف محدد واضح لـ (ما بعد الحداثة).

٢. مفهوم ما بعد الحداثة عرضة للتغير كغيره من المفاهيم وهو بذلك غير ثابت.

٣. لفظ ما بعد الحداثة يوحى بالتوالى الزمنى كامتداد للحداثة، و فى نفس الوقت نقضها و تجاوزها، أنه لفظ متذبذب فى حركة عكس و اطراد، تقدم و تأخر، تشابه و اختلاف، وحدة و تمزق، تبعية و تمرد، تعكس حالة فكر ما بعد الحداثة، الذى قد يرجع لمفكرين سابقين على الفترة التالية للحداثة مثل نيتشه و هيدجر. (١)

وقد تكون التفكيكية هى تطبيق لفكر ما بعد الحداثة، و إن لم تكن التطبيق الوحيد، فيكفى إنها الوحيدة التى أغلقت باب الحداثة بنقضها للبنيوية، و أنها فتحت بنفس النقض المجال لبزوغ فجر ما بعد الحداثة.

و الآن نحاول بحث التفكيكية كنظرية فى النقد الأدبى، أى كاستراتيجية نقدية لمقاربة النص الأدبى أو الفلسفى، ثم نعرض أهم مفاهيمها التى تعد كأدوات للاستراتيجية.

(*) إيهاب حسن من أبرز الرواد المعتمدين لحركة ما بعد الحداثة، ناقد و مفكر أمريكى معاصر (مصرى الأصل) من مؤلفاته : " التحول ما بعد الحداثى : محاولات فى نظرية و ثقافة ما بعد الحداثة " عام ١٩٨٧ م .

(١) د / عصام عبد الله : " الجذور النيتشوية لـ ((ما بعد)) الحداثة "، ص (١٥٨، ١٥٩).

ب - استراتيجية التفكيك.

بداية يجب أن نعرف أن التفكيكية فى مقاربتها لأى نص أدبى أو فلسفى، تعده (و تتعامل معه فى البداية على أنه) بنية (له مركز)، و نسق مغلق من العلامات، التى من شأنها تحديد معنى ذلك النص (كنص مغلق مكتفٍ بذاته)، و هى كاستراتيجية مراوغة، لا تؤمن و لا تثبت هذه الأسس البنيوية إلا كإجراء استراتيجى، أى كتكتيك يهدف للإيقاع بالفريسة (ما قد يتضمنه النص من متناقضات ضمنية)، و بعد ذلك ينفتح على أيدى التفكيكيين النص، و تسقط الحدود ليطالعونا على التناص، و اللعب الحر للدوال العائمة، و اللامركزية، و الكتابة الآلية، و لانهائية القراءات، و التمفصل(١)، و إعادة كتابة النص، و الميتالغة أو اللغة النقدية، التى تكون هى قابلة من جديد للتفكيك، بأى قراءة جديدة تفكك و تُخَطئ القراءات السابقة، أى أننا نعود من جديد لنفس النقطة، التى بدأنا منها، فلم ننتج سوى نص جديد قابل كالأول للتفكيك، و لكن لماذا لا تطبق التفكيكية منذ البداية نفس المفاهيم بنفس الاستراتيجية على النص منذ البداية ؟ ذلك لأن التفكيكية هى استراتيجية مراوغة، تعمل على كشف ما بالنصوص و الفكر من تناقضات، تمليها علينا مركزية الميتافيزيقا، و التفكيكية لم تحاول إن تقدم البديل للخروج من أزمة الفكر، فهى تطرح فقط الأسئلة، التى من شأنها أن تجعل هذا الفكر ينقلب على نفسه و يتصدع داخلياً من تلقاء نفسه، و لا تجد فائدة من إعادة بنائه، حتى لا يكون ملجأً للميتافيزيقا من جديد.

---

(١) التمفصل مصطلح تفكيكى يُشير إلى مواضع (عناصر) فى النص تقبل التأويل و هى محورية فى تحديد معنى النص، بحيث أى تأويل لعنصر منها يُغير تماماً مسار تكون المعنى و يعطى إمكانات جديدة للمعنى لم تكن متوقعة.

و كل ما أردنا توضيحه هنا هو الكيفية التى تبنى بها التفكيكية استراتيجيتها على دعائم بنيوية، تُعد كجذور للتفكيكية فى التربة البنيوية و ما قبل البنيوية، كما سبق أن بينا، ما ورثته البنيوية و كيف هى بعد ذلك تركت منه ميراثاً لما بعدها.

أما عن التفكيكية كاستراتيجية نقدية، فيمكن أولاً أن نلخص أهم الأسس التفكيكية، من حيث هى أدوات تقويض النص، و ثانياً نعرض لتطبيقها كنظرية نقدية (كيفية مقاربتها للنص الأدبى أو الفلسفى).

أولاً : التفكيكية كاستراتيجية غايتها تقويض النص و منهجيته ،

و يمكن تلخيصها فى النقاط التالية التى تمثل الأسس التى يقوم عليها التفكيك:

1. تنطلق التفكيكية من نظرتها الخاصة للغة على أنها مستقلة عن ذواتنا كمستخدمين لها، و أيضاً على أن اللغة هى كتابة أولية، و آلية فى تراكيبها التى تُهيئ لظهور المعنى فقط، و لا تعمل على تثبيته، و ذلك راجع للإمكانيات اللانهائية و طبيعة التراكيب التى تُنتجها اللغة (الكتابة) آلياً، فاللغة بذلك و لذلك لا تقرر المعنى، بل تساعد على انتشاره، و إغناء إمكانياته، أو احتمالات تكونه و تحريره، بشكل لا نهائى، و هو ما يعرف باللعب الحر للدوال. (1)
2. تستهدف التفكيكية العلاقات التى بين النص وكيفية تكونُه، أوالسلطة (الأعراف والفلسفات والمسلمات والمعتقدات) التى تُمارس (أو تساهم فى) عمليات قمع (تَكَون أو تثبيت أو شحذ وتحفيز) المعنى لتحديده، أى العلاقات القائمة بين المعرفة و آليات إنتاجها. (2)

---

(1) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (206).

(2) المرجع السابق : ذات الموضع.

٣. غاية التفكيكية كمنهج هى تقويض دعائم النص، و الكشف عما تضمنه النص من تناقضات، ولا منطقية التقاليد التى أفرزت هذا النص، و لهذا تتشكك التفكيكية فى منهجية الفكر التقليدى، و لا تفصل بين المنهج، والمادة المدروسة والمطبق عليها المنهج من الخارج، بل ترى تبادلاً جوهرياً بين المنهج و نتائجه بجعل المنهج مسبباً للنتائج، و ليس معزولاً عنها. (١)

٤. القراءة اللصيقة بالنص هى ضرورة فرضتها رفض التفكيكية للمنهجية التقليدية، لتُحل محلها منهجية تراعى خصوصية النص و القراءة معاً، بحسب ما يقتضيه النص و مصطلحاته و آلياته، و تخضع المنهجية لنفس ما يخضع له النص من استجواب و دراسة و تحليل و شك، بل و نقض و تفكيك.

وهذا يعنى أن رفض المنهجية التقليدية يحتم، أن يبدأ التفكيك من نسيج النص و آلياته و تفقد بنائه، و تشتت معانيه، فخصائص الفائض فى تركيباته تمثل الآليات المتوفرة كمفاتيح لقراءة النص، وهى بالطبع متغيرة و مختلفة من نص لآخر. (٢)

٥. بداية التفكيك كاستراتيجية قراءة تبدأ من داخل النص (فلا وجود لأى عناصر خارج النص)، فننتقل من نقطة متوترة فيه نكون قد حددناها من قراءتنا الأولية للنص (نتموقع ضمن الزخم الميتافيزيقى)، إلى نقاط أخرى متوترة تحتوى على تناقض داخلى (أو تحيز لتقاليد معينة)، هو ما يساعد على ظهور التوترات و فجوات النص (المواضع المسكوت فيها عن

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٠٦، ٢٠٧)، و للمزيد يراجع د / صلاح فضل : " مناهج النقد المعاصر " دار الآفاق العربية، ط أولى، ١٩٩٧م، ص ص (١٢٧ _ ١٣٤).

(٢) المرجع السابق : ص (٢٠٧).

التصريح بما يؤكد أو ينفى معنى محدد، أو يُرجح معنى على غيره مما تكبحه التقاليد). [1]

٦. قلب النص على نفسه من خلال تحييد المفاهيم التى كانت تحوى تناقضاً و تظهر كتوترات فى النص، و عملية التحييد هنا تعنى نسف القيمة المعطاة من قبل التقاليد المسيطرة على النص، و كشف ما تضمنه تلك القيمة من تناقض و لا منطقية و لا شرعية، فبذلك تكون المفاهيم قد حُيدَت، فتُعيد التفكيكية نشر تلك المفاهيم (التى تم تحييدها) من جديد فى نفس أماكنها من النص، لا لتُكون بنية أو تُركب النص من جديد، بل ليتصدع النص الذى لا تحتمل بنيته مثل هذه المفاهيم المحايدة، و التى يؤدى دخولها للنص من جديد إلى تشتت المعنى و تفتيته بشكل يُظهر تخبط و زعزعة النص، بما يؤدى لسقوطه تلقائياً متصدعاً. [2]

تلك الأسس الست هى التى تُكون جوهر استراتيجية التفكيك، و فى نهايتها نلحظ عدم تقديمها للبديل لما نقضت، و لا تؤيد أبداً فكرة محاولة إعادة البناء على أسس جديدة، ظناً من رواد التفكيك أنهم بذلك يقطعون أى طريق على الميتافيزيقا للظهور من جديد فى أى خطاب مُتَكَون، و فى ظنهم هذا تناقض و مغالطة يغضون الطرف عنها، و التناقض يتمثل فى أنهم مهما بذلوا من جهد سيظلون ينتجون خطابات مُتكونة بنفس الطريقة التى تسيطر عليها الميتافيزيقا، فهم يرفضون الميتافيزيقا و يكتبون ضدها، أى لا بد من ظهورها من جديد حتى فى الخطاب الناقض، و الناقد لها (لا يفل الحديد إلا الحديد، و لا ينقض الفلسفة إلا الفلسفة أو بفلسفة)، و المغالطة هى أنهم يعترفون بأن مقاربتهم التفكيكية للنصوص هى نصوص جديدة، قابلة للتفكيك

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٠٨ _ ٢١٢).

(٢) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (٢١٢).

من جديد، أى أنها نفسها تحتوى على تأثير للميتافيزيقا، التى تعمل على إنتاج و تكوين هذه النصوص (المقاربات) الجديدة، التى هى غير نهائية، بل هى صحيحة إلى أن تأتى مقاربة جديدة، تهدم سابقتها بالكشف عن ما بها من تناقضات أملتها مركزية التقاليد و تسربت إليها تأثيرات الميتافيزيقا.

ثانياً: التفكيكية كاستراتيجية نقدية (كيفية مقاربتها للنص الأدبى أو الفلسفى).

١. تبدأ المقاربة بقراءتين الأولى لتفحص أو (تفقد نقاط ضعف) النص، أى للتعرف على ما يتضمنه النص من مواضع ضعف وقوة، ومن متناقضات ضمنية، وعلى منهجيته و مجازياته و أساليب البلاغة فيه، و الفلسفة التى تدعمه و يدعمها، و تاريخيته لتحديد مفاهيمه و مصطلحاته، و تعد هذه القراءة استكشافية للجو العام للنص، لتأتى بعدها القراءة المكملة للأولى و فيها يجد الناقد لنفسه موضعاً من مواضع كثيرة (قد حددها فى القراءة الأولى) داخل النص، فيقرر بأيها يبدأ، و هى لابد من وجودها فى كل نص لأن اللغة ذاتها مبنية على التضاد، فيتمركز داخل شقوق أو صدع مثل هذه الثنائيات التضادية، ليجعل من ذلك الشق فجوة كبيرة لتباعد شقى ثنائية التضاد، و يتم ذلك من خلال دراسة الناقد الدقيقة و العميقة للعلاقات التى تربط النقيضين، ليكشف أنها ليست عدائية أو قسرية أو بفضل قيمة طرف على الآخر، فهى فى النهاية علاقة معرفية (يتميز بضدها الأشياء عن بعضها)، و من ثم فتفضيل طرف على نقيضه ليس بحتمى و لا بمنطقى و لا بضرورى، و إنما جاء هذا التفضيل نتيجة لفرضية متعالية تعبر عن رغبة مكبوتة (لا يمكن التحقق من صحة فرضيتها أبداً، فقد تم فرضها على النص بالقهر الميتافيزيقى)، و بهذا يتساوى طرفا التضاد فى أهمية و ضرورة بعضهما

لتميزهما عن بعض و عن غيرهما معرفياً، و بهذه القراءة المزدوجة تكون التفكيكية قد أنهت أولى خطواتها بنقل الجدل من القيمة المتحيزة (لطرف على الآخر) إلى السمة المعرفية التى يتساوى فيها الطرفان. (١)

٢. أما فى الخطوة الثانية فيتم التركيز على دراسة طرفى معادلة التضاد بدقة و تأنٍى، لرصد سمات كل منهما ليتسنى بالتالى ربط ما يصرح به النص بكل معطيات الفكر و الثقافة الغربية (من سياسية و اقتصادية و اجتماعية و أدبية و غيرها)، أى أن التفكيكية تربط بين مصادرات النص و بين التقليد الميتافيزيقى الذى فضل طرف على الآخر ليتم بذلك بناء بنية كاملة حول كل طرف، و يتيح هذا التقصى للتفكيكية تثبيت طرفى المعادلة، ورصد سمات كل منهما و من أين يستمدها. فنجد الطرف الأول يتسم بالأولية و السمو و النقاء و الصفاء، بينما يتصف الطرف الثانى بكل نقائض و نقائص الطرف الأول، من دونية و ثانوية. و تعد الخطوة الثانية بمثابة خطوة تحضيرية للخطوة الثالثة. (٢)

٣. أما الخطوة الثالثة فهى التدخل، و هو ليس إلا بتحريك طرفى التضاد، و مقارنتهما ببعض، و بعد ما أثبتت التفكيكية تساوى الطرفان فى الأهمية من الناحية المعرفية، إذ يتساويان فى أن ما ينسحب على طرف يصدق أن ينسحب على الطرف الآخر، خاصة و أن الطرف الثانوى (فى النص) أو المهمل، يتصف من الناحية المعرفية و المنطقية بالأسبقية على الطرف الذى تُعليه النظرة الميتافيزيقية، و التفكيكية لا ترى سبباً لرفعة طرف على الآخر، لكنها هنا تستغل هذا التناقض المنطقى لتدحض

---

(1) Jacques Derrida : "Positions " trans. Alan bass (Chicago : University of Chicago Press , 1981), PP 41-43.

(2) Ibid. PP41- 42.

التمركـز المنطقـى، و هـذه الخطـوة يـذكرها دريـدا بعـد الخطـوة الرابعـة و هى عملية قلب أو عكس طرفى المعادلة، و لكننا أوردناها قبل عملية القلب لكونها تمهد لعملية القلب. (١)

٤. الخطوة الرابعة و فيها يتم قلب أو عكس طرفى المعادلة، بحيث يحتل الطرف الأول مكانة و سمات الطرف الثانى الثانوى و بالعكس، لتثبت التفكيكية أن منطق الفكر الغربى إذا ما دُفع به لأقصى حدود فرضياته، فلابد و أن يقر بأهمية و أفضلية الطرف الثانى (الثانوى) على الطرف الأول ذى القيمة، و ذلك بحسب نفس منطق التفضيل و بنفس منهجية التأويل التى يتعامل بها الفكر الغربى. و التفكيكية لا تُعلى طرف على آخر و إنما تهدف من ذلك القلب إثبات القمع الجبرى، الذى يتبناه فكر التمركز المنطقى ليُثبت قهراً (أو ليُسقط) مقولاته ذات القيمة. (٢)

إن كان يحق لنا هنا إبداء و جهة نظر فى الإجراءات التفكيكية، فهى مفيدة على مستوى الفكر و المعرفة إذا ما توقف التحليل بنا إلى الخطوة الثالثة فقط، حيث يتم الكشف عن ما يتضمنه النص من قمع قسرى يرجح طرف على طرف آخر، و سواء مارس هذا القمع سلطة ميتافيزيقية أم تقليد فهذا راجع إلى التنظيم الداخلى للنص، الذى يُعد كنسق متكامل معبراً عن فكرة أو مذهب، و فى نفس الوقت يكشف ببنائه العوامل التى أدت فى النهاية لظهوره بهذا التكون المميز له عن غيره، فلا يحق للناقد أن يقلب مفاهيم النص الأدبى رأساً على عقب، لأن فى هذا تشويه و تزييف للنص الأصلى، فما عملية القلب إلا عملية انتزاع لبعض وحدات النص المؤثرة فى مفهوم و مضمون رسالته ليحل محلها المفاهيم العكسية أو المضادة لما انُتزع من النص

(1) Ibid. P. 41.
(2) Ibid. P. 41.

ليُنتج لنا نصاً جديداً، لا يقول ما كانت تحمله رسالة النص الأصلى، بل قد تقول عكس ما كانت تحمل رسالته الأصلية. و لا ننسى أن التفكيكية نفسها ترى فى أى ممارسة لغوية لابد من ظهور التضاد الذى هو من سمات اللغة لتتميز الوحدات عن بعضها، فما فائدة القلب هنا، و هو سيؤدى من جديد لظهور الثنائيات المتضادة؟ إنهم بعملية القلب يتجهون لتفكيك الميتافيزيقا التى تتسلط على اللغة، و هو أمر لا فائدة منه لأنها تتكون باستمرار وعلى نفس المنوال (وفى هذا مناورة تذكرنا بالجدل السوفسطائى العقيم).

هذا من جهة و من جهة أخرى نراهم بعملية قلب معادلة الثنائية، يبتعدون تماماً عن الهدف من النقد الأدبى، و لعل هذا الإجراء التفكيكى هو منبع لا نهائية المعنى أو فلنقل ضياع المعنى و ليس غناؤه، لأننا بعدما نمسك بالمعنى و ندرك منهم كيفية تكونه، يقلبون المعادلة ليضيع المعنى الأول لينتشر من بعده المعنى بشكل مشتت و لا نهائى، و نظنه لأمر خطير جداً و خصوصاً على مستوى الأدب، فالذى فعله التفكيكيون بالنص الأدبى لا يُبقى من أدبية الأدب أى شىء، لا بلاغة و لا مجاز و لا موسيقى و لا سجع، و تحول الأدب و النقد الأدبى لديهم إلى لذة أو متعة ناتجة عن لعب و مراوغة المعانى، و المشاركة (لا الاستهلاك) فى بناء المعنى و إعادة كتابة النص من جديد. أظن أننا خارج دائرة الأدب و النقد كذلك، و أننا مثل رواد التفكيك لا ندرى أين نحن و لا ندرى إلى أين نُساق.

و على عكس ما نرى، يرى دريدا أن عملية القلب هى ضرورة التحليل المستمر أبداً : [لأن] هرمية القطبيات المزدوجة تُعيد تأسيس نفسها دائماً، و

إذا بقى [المرء] فى هذه المرحلة [القلب] فإنه سيستمر فى العمل بنفس تسلط ميتافيزيقيا النظام الذى تم تقويضه من داخله. (١)

و على الرغم من أن دريدا يرفض تقديم البديل الغير ميتافيزيقى، إلا أنه تحدث كثيراً عن خطوة خامسة هى (التحويل) أى تحويل البنى و النص إلى خطاب لا تسيطر عليه مركزية الميتافيزيقا، إلا أنه لم يحاول توضيحها أو تطبيقها، فهو يرى أن أى بديل لابد من آلية تُقمعهُ، و أى محاولة للخروج من أو على الميتافيزيقا ما هى سوى العودة من جديد لها. (٢)

و بالرغم من أن التفكيكية من الموضوعات المثيرة جداً للجدل، بحيث يصعب تلخيصها أو الإلمام بها فهى ما تزال من الموضوعات الجديدة على مكتبتنا العربية، إلا أننا نكتفى بهذا هنا خشية التكرار، حيث أننا سوف نتناول نفس النقاط عند تناولنا لمفاهيم و مقولات التفكيكية، و من بعدها سيتضح أيضاً الكثير من خلال بحثنا للنقطة التى نضع فيها التفكيكية تحت المجهر، لنفحص أهم أفكارها بما لها و ما عليها.

جـ- أهم مفاهيم و مقولات التفكيك.

١. اللعب الحر للدال و المراوغة (**indeterminacy**) من المدلول، لم يصرح دريدا مباشرة بحرية الدال أو الدلالة، بل قال فقط بأن الفائض (من المعانى المحتملة) هو الذى يجعل من تقرير المعنى (أو تثبيته) أمراً محال، و ذلك لأن تقرير المعنى و وجوده ليس هو ما تحدده أو ما تفترضه الميتافيزيقا فقط، و بما أن وحدات اللغة و بنيتها لا يمكن تخليصها من خلفيتها الميتافيزيقية، لذا نجد مقولات حرية الدال أو حرية التأويل، و تحرر النقد ما هى إلا رغبة للعودة (حنين) لحالة أولى كان الدال فيها مازال حراً بعيداً عن

---

(1) Jacques Derrida : “Positions ” P. 42.
(2) Ibid. P.51.

تحكمات البنية، أو كبح و قمع القيود و التقاليد. و يذكرنا دريدا بأن من آليات الأثر أو الاختلاف، أن الأصل الأول هو عبارة عن فراغ ليس بدال و لا بمدلول، عبارة عن انفساح (ينتجه الاختلاف كأثر أوليّ ليتميز عن غيره) و هو الذى يتم به تأسيس الدال و المدلول، و بهذا التأسيس يظهر الدال مشحونا بالقيمة و التحيز، أى يولد مُحفزاً و مكبلاً بقيود لا يستطيع الخلاص منها. (١)

إذن تم دفع عشوائية علاقة الدال بالمدلول إلى أقصى مدى ممكن، و أيضاً بالنسبة للدلالة أضحت تقيداً و كبحاً، تمنع وفرة المعانى الممكنة من الظهور. و تحرر الدال فعلاً من أى علاقة تربطه بمدلول معين، فى حين أصبح حراً ؛ بل و مراوغاً لأن فى تكوينه لمعنى سيكون موته أو فقده لحريته، لذا فهو دوما يهرب من التحديد فى معنى واحد.

٢. البنية الدلالية (**signification**)، هى ما يقوله النص و ما لا يقوله، و هى هدف القراءة النقدية، أى هى مجموعة المعانى المحتملة كتركيبات ممكنة لبنية النص بعد تفكيكه(*)، و بعدما تكشف عنها القراءة النقدية، و هى دائماً متغيرة و غير محددة، و ذلك لتكونها المستمر من خلال التشكل اللانهائى للمعانى.

و نجد رولان بارت يصور مسارين للنقد الأدبى، أحدهما يطلق العنان للدال فى انطلاق تام بعيداً عن قمع القوى التاريخية و الميتافيزيقية، و بذلك تتحول القراءة إلى حالة هوس، و لهث مستمر وراء الدال، و يختفى المدلول تماماً من هذا المسار الذى يرى بارت أن وقته لم يحن بعد،

---

(١) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (٢٢٠).

(*)المرجع السابق : ص (٢٢٢) .

و لهذا نكتفى بالمسار الثانى الذى ينزلق فيه الدال و لكن بتمهل، يأخذ بنفس تحليقات المعانى و لكن بدون الخروج على حدود الإمكانات الدلالية و خلفياتها التى تقرر فعاليتها سلطان قواعد الاتصال. (١)

٣. الأثر (trace) الأولى، قد يُعد الأثر أهم ما جاء به دريدا، فهو مفهومُ يدخل إلى عالم الأدب قيمة كبرى كأساس للفهم النقدى، لا يقل أهمية عن الصوتيم و العلامة و علاقة الإشارة الاعتباطية ؛ بل هو الذى يعطى باقى القواعد النقدية أهميتها الفنية. و هو بديل لإشارة سوسير، يطرحه دريدا كلغز غير قابل للتحديد، مؤثرا على كل ما حوله و لا يُمس، و ما الكتابة الأولية إلا أحد تجليات الأثر، و ليست الأثر نفسه، و هو ليس بجوهر و ليس له وجود خالص. (٢)

فالأثر الأول هو ما يتولد عن عملية الاختلاف كعملية (خلق و تأسيس) تُخلف الأثر الأولى، كنقش أو كتابة أولية يمثل الأثر أصغر وحداتها.

فهو "الشرط الذى لا نستطيع أن نذهب إلى أبعد منه، و لكنه يتمرد على كل محاولة لفهمه لأنه شرط إمكانية كل فهم. إنه الأصل الذى بدون أصل، و دون مركز يعود إليه أو يدور حوله، إذ ليس هناك اختلاف أصلى، أو أولى نعود إليه لتفسير لعبة الاختلاف و التمايز، فالاختلاف أو الفرق يصبح هو الفرق المطلق ؛ أى الفرق الذى لا يمكن أن يصبح الآخر". (٣)

---

(١) د / عبد الله الغدامى : " الخطيئة و التكفير من البنيوية إلى التشرحية قراءة نقدية لنموذج إنسانى معاصر " النادى الأدبى الثقافى بجدة،عام ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، ص (٥٠، ٥١).

(٢) المرجع السابق : ص (٥٣، ٥٤)، و للمزيد يراجع جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى جاك دريدا " ص (٦٥).

(٣) د / عصام عبد الله : " الجذور النتشوية لـ" ما بعد " الحداثة "، ص (١٦٨).

٤. المعنى أو الدلالة (significance)، تعد من القضايا الجوهرية لاستراتيجية التفكيك، لسببين الأول تقصير البنيوية فى تحديد المعنى الحقيقى وكيفية إنتاج الدلالة، التى ضحت بهما لصالح الاهتمام بالنظام و البنية و النسق، و السبب الثانى هو أن التفكيكية هى إفراز عصر شك كامل خيم على كل شيء، فاستحالت معه المعرفة اليقينية و افقد العالم محور ارتكازه، و هذا ما يفسر فوضى النقد و لا نهائية الدلالة القائمة على لا مركزية و لا مرجعية لأى سلطة خارجية، و نفى وجود التفسيرات الموثوقة أو النهائية. و النتيجة فى النهاية إطلاق المعنى، و دوائر يرسمها بارت فى الهواء، و يقدم بارت تصوره عن قراءة النص الأدبى (تصوراً يساوى بين القراءة و ما يقوم به العرافون من استقراء لصفحة السماء التى يرى فيها ما لا يراه غيره). [١] (١٧)

و هذا يوضح الطبيعة المراوغة للمدلولات و للمعنى أو الدلالة، و يصور أيضاً "القارئ الذى يحاول، برغم إدراكه عبثية الخطوط الوهمية، و الحركة المستمرة داخل النص، أن يقرأ معنى فى النص لن يكون الأول أو الأخير. و القارئ يستمد من تجربته (محاولة القراءة) لذة و بهجة ".[٢] فقط.

و نقدم بعض الملاحظات على التفكيك منها ما يخص المعنى التفكيكى، فنجد إنه "يمكن جعل معظم النصوص تولد مجموعة لا نهائية تقريباً من الأوصاف الراقية للمعنى. لماذا نقصر ثقتنا على المعنى ؟ إن المعنى إنتاج متأخر لمنع العب ".[٣]

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٣٧، ٣٤٧، ٣٤٩).

(٢) المرجع السابق : ص (٣٣٨).

(٣) المرجع السابق : ص (٣٣٩).

٥. التناص أو البينصية (**Intertextuality**)، مفهوم يجعل من النص الأدبى ليس وحدة أو بنية مستقلة أو مغلقة ؛ بل النص هو مجموعة من التداخلات مع النصوص الأخرى، و تكراراً لوحداتها فيه، فنظامه اللغوى و نحوه، و معجمه تجر معها شذرات أو أثاراً من التاريخ اللغوى، فالنص يضم مجموعات لا يمكن تفسيرها من الأفكار و العقائد المتنافرة، و النص بهذا يشبه شبكة غير مكتملة من المقتطفات المستعارة من غيره أو من المعجم اللغوى، و من هذه المقتطفات ما هى واعية، و منها ما غير واعية، و بهذا يكون التفكيكيون قد اجتاحوا حدود النص لينفتح على العالم و على باقى النصوص، و جعلوا للنص الواحد الإمكانية بأن يقول كل شىء، و أن لعبة اختلافه ذاتها تعكس إزاحته لنصوص أخرى يكشف عنها النقد التفكيكى، وعلى هذا فلا معنى بدون بينصية. (١)

٦. موت المؤلف (**the death of writer**) و مولد القارئ، بالرغم من كون فكرة موت المؤلف سبقهم بها البنيويون، إلا أنهم يؤكدونها للإجهاز عليه تماماً، و لكن يظهر لدى التفكيكيين ذات القارئ الذى سيُعيد كتابة النص.

و المؤلف يُبقيه دريدا تكتيكياً موجوداً مع أول ثلاث خطوات من استراتيجية التفكيك، ليُجهز عليه تماماً بتفكيكه فى خطوة القلب (الرابعة)، فلا يَبقى له وجود فى النص و لا فى اللغة، بل و ينهى تماماً الوجود الإنسانى بعد ذلك عند نفى المرجع و المركز الثابت، فى مقابل القول بأسبقية و استقلال اللغة عنا، و التناص، و جميعها مفاهيم تستبعد أى دور للذات الإنسانية من عملية المعرفة. (٢)

---

(١) المرجع السابق : ص (٣٣٩، ٣٤٠ ، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (١٦٥، ١٦٦).

و بالرغم من ظهور الذات الإنسانية من جديد فى استراتيجية التفكيك (خاصة و فى نقد ما بعد الحداثة عامة)، فى صورة ذات المتلقى أو القارئ الذى يعيد كتابة النص من جديد، إلا أن التفكيكيين يؤكدون أن المتلقى هنا ليس هو الذات الإنسانية ذلك المركز الثابت، لأنهم لا يسمحون له بالتكون ؛ بل هم فقط يسمحون بوجود ذلك المتلقى الذى يُنشئه النص، أو الذى تُوجده اللغة و ينتهى و يُفكك بفعل أى قراءة جديدة. (١)

و هذا يقربنا من مفاهيم ذات صلة بالقارئ مثل التناص، و كيفية عمله جنباً لجنب مع أفق توقعات القارئ، و هذا كفيل بأن ينفى عن القارئ سمة الإنسانية، لأنه ذاته تكون بفعل اللغة، فلا وجود له إلا لحظة دخوله للنص، و ظهوره لا يتم إلا بلغة النص، و ينتهى وجوده مع نهاية مقاربته أو قراءته للنص، لتقوم اللغة فى المحاولة الجديدة ببناء ذات القارئ بمقومات و مكونات مختلفة عن ما ظهرت فى القراءات السابقة، "فذات القارئ أو المتلقى ليست أكثر تحديداً و أقل مراوغة. إنها هى الأخرى تخضع لعمليات تفكيك مستمرة باعتبارها المجال الأول الذى تُعبر فيه البينصية عن نفسها. و لنذكر فى هذا المجال أفق التوقعات التى يجىء بها القارئ إلى النص، و كيف أنه أفق متغير تغير الزمن و التاريخ و تغير قيم جماعة التفسير التى ينتمى إليها ذلك القارئ... و نضيف هنا أن البينصية أو التناص تبدأ عند القارئ أثناء عملية التلقى. صحيح أن النص هو التجسيد الحى لهذا التناص، لكن التناص كالمؤلف تماماً لا يكتسب وجوده إلا مع وعى المتلقى به".(٢)

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٤٢).

(٢) المرجع السابق : ذات الموضع.

٧. الميتالغـة (**metalanguage**) أو اللغـة الشـارحة، و هـى مـا كانـت النظـرة التقليديـة تراهـا لغـة مـن الطبقـة الثانيـة، بالنسـبة للغـة الأدب التـى هـى مـن الطبقة الأولى، و هذا فى رأى "بارت "يخالف الواقع، فيمكن لأى لغة شارحة (نقديـة) أن تحـل محـل لغـة الطبقـة الأولـى، وذلـك بفضـل"المنطقـة العميـاء "منطقة الشـك التـى تفكك سـلطة اللغـة الشـارحة، بالخلخلـة التـى تُحدثها أى قراءة جديدة. فتصبح لغة النقد (الشارحة) الأولى هى لغة من الطبقة الأولى بالنسبة للقراءة الجديدة، و من هنا بدأت اللغة الشارحة تلفت النظر لها و تشـد الانتبـاه للنقـد و لغتـه أكثـر مـن الـنص الأدبـى و لغتـه. و أصبح النقاد الحداثيون و من بعدهم يطمحون فى أن تَلْقى أعمالهم نفس الإعجاب و الحفاوة التى تلقاها الأعمال الأدبية، و ينتظرون اليوم الذى يتم فيه قبول النقد باعتباره إبداعاً أدبياً كالرواية و الشعر، دون أن يؤثر ذلك فى باقى أنواع الأدب القائمة. (١)

٨. الاخـتلاف (**difference**) / التأجيـل، مـن أهـم المفـاهيم المحوريـة فـى فكـر التفكيك و يخصص له دريدا بحثاً نشره بالفرنسية عام فى ١٩٦٧م، و منذ ذلك الحين لم يفقد اللفظ و لا المفهوم بريقه، و إثارتـه للجدل حول نتائجه كمقولة أساسية فى استراتيجية التفكيك. و هى تمثل اشتقاق (استمده دريدا) من الأصل الفرنسى **differance** ليُغير الحرف **a** بالحرف **e** لتقترب من الكلمة الإنجليزية **difference** (فتعنى بذلك التغير تأجيل المعنى و إرجائه

---

(1) Vincent B Leitch, " Deconstructive Criticism ": An Advanced Introduction, (London Hutchinson, 1983), p.229.

و يراجع د/عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية " ص (٣٦٧) للوقوف على مانفستو نقاد يل الخمسة الذين يختلفون حول مبدأ نقل لغة النقد إلى لغة من الطبقة الأولى.

لما فيه من اختلاف)، أى تعنى فى نفس الوقت الاختلاف و تأجيل الإحالة باستمرار بأن لا تُشير إلى معنى محدد. [1]

و أهمية الاختلاف تنبع من كونه العملية الضرورية لتمييز الحرف عن غيره و الدال عن غيره، فبدون ما يحدثه الاختلاف من تمايز و تفرد لوحدات اللغة، لا يتم المعنى و لا تتم فائدة اللغة، و لا يقع الإدراك و لا الفكر و لا الفهم.

وحتى مقولة الاختلاف التى تُعد أهم محور فى النقد التفكيكى، نجد لها جذوراً سابقة حتى على البنيوية، فها هو"سوسير"يوضح الأمر بـ "إن النسق اللغوى عبارة عن سلسلة من اختلافات الصوت ترتبط بسلسلة من اختلافات الفكر، إن العلامة فى لغة ما تقوم على الاختلافات التى تفصل بين صورتها الصوتية وفكرتها الجوهرية، وبين الصور والأفكار الجوهرية لكل العلامات الأخرى. إن العلامة دائماً مميزة مختلفة... إن أى علامة هى ما ليست كل العلامات الأخرى".[2]

هذا وإن كان مفهوم الاختلاف عند"دريدا "يختلف عن مفهومه لدى "سوسير "الذى حصره فى التضادات الثنائية، و هو لدى دريدا يتخطى هذا المفهوم الضيق ليؤدى وظيفة أشمل هى تحقيق الدلالة باللعب الحر

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية " ص (٣٧٤)، و يراجع أيضاً جون ستروك : " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا "، ص (٢٢٠، ٢٢١)، و أيضاً د / بسام قطوس : " استراتيجية القراءة التأصيل والأجراء النقدى " مؤسسة حماده و دار الكندى، أربد الأردن، ١٩٨٨م، ص (٢٣، ٢٤).

(٢) عن د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٧٧)، و يراجع أيضاً . جون ستروك : " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا "، ص (٢٢٠).

و لا نهائية المعنى. فدريدا يرى أن (الاختلاف/ التأجيل) هو بناء و حركة و لعب منتظم للاختلافات التى تربط بين العناصر و الفواصل (الانفساح) التى بينها، حتى تتحقق الدلالة. (١)

و إذا كان الاختلاف عنصر تثبيت للدلالة فالتأجيل عنصر تفكيكها، تأجيل مستمر للدلالة يجعلها تراوغ المدلول، و من المراوغة و التأجيل المستمر للدلالة نجد اللغة لدى التفكيكيين هى مجموعة من الدوال بدون مدلول، وذلك بسبب تحول كل مدلول إلى دال جديد من مراوغته للدال الأول. (٢)

٩. مفهوم (الحضور / الغياب) (**metaphysics of presence**) : من أهم القضايا التى ركز عليها دريدا فى نقده للفكر الغربى التقليدى و أصر على تفكيكها، هى فكرة (ميتافيزيقا الحضور) الحضور الصوتى للأشياء كتمثل و حضور حى يستحضره المتكلم عن تلفظه للكلمات، و هو تقليدياً يختلف عن الغياب الذى تُخلفه الكتابة كشكل ثانوى لاستخدام اللغة، و هذا كان يُعلى من شأن الصوت بأن يجعله سابق على الكتابة و أولى عنها بالنسبة للغة كأداء، و ميتافيزيقا الحضور كانت تُرجع هذا الحضور لمركز خارجى هو الضامن لصحة الإشارة (أو العلاقة التى تربط بين طرفى العلامة اللغوية)، و هذا كان يُساعد الفكر الغربى على تحديد الوجود و الجوهر و الأشياء فى ذاتها كحضور ماثل مشخص، و بنفس الطريقة كان الحضور

---

(1) Jacques Derrida, " Positions " (Paris : Minuet, 1972), English trans. (Chicago p, 1981), p.38, 39.

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٧٨)، و للمزيد يراجع جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى جاك دريدا "، ص (٦٣، ٦٤).

الزمانى يعنى الآن أو اللحظة الحالية، و الحضور الذاتى يعنى الوعى بالذات و بالذوات الأخرى. (١)

و استراتيجية التفكيك ترى استحالة حضور مثل هذا المركز فى النص أو اللغة، ذلك لأن الحضور يرتبط دائماً بالغياب، لأن المراوغة و الغموض و الانتشار و البينصية و لانهائية الدلالة هى أبرز خصائص النص، و بهذا يتداخل الحضور بالغياب، و يقترن حضور الشيء بغيابه الأصلى و إلا لا تتم الإشارة اللغوية (فهى لابد و أن تشير إلى ما هو غائب)، فلعبة الاختلاف تمنع مثل هذا الحضور الذاتى لأى عنصر فى اللغة سواء مكتوباً أم ملفوظاً، و لا يستطيع هذا العنصر أن يقوم بوظيفته كعلامة (تُشير) دون أن يدخل فى علاقة مع عنصر آخر (ليميز و يتميز كل منهما عن الآخر)، و بهذا يتشكل العنصر فى إشارته أو حضوره من آثار باقى العناصر المتميزة عنه، و المشتركة معه فى النسق اللغوى للنص. (٢)

١٠. مفهوم الانتشار (**dissemination**) و تشتيت المعنى بدلاً من تثبيته. و هو نقيض الانغلاق على معنى واحد، وهو ما ترفضه التفكيكية فى توجهها نحو لا نهائية الدلالة، و لا نهائية القراءات و لانهائية المعنى التى تعنى تفجر المعنى، و انتشاره و تشتته المستمر، حيث لا يكتمل المعنى أبداً و لا يتجمد، و هذا ما فعله رولان بارت فى تفكيكه لنص قصة بلزاك(*)

---

(١) المرجع السابق : ص (٣٧٨، ٣٧٩).

(2) Jacques Derrida, “ Positions “p..37,38.

(*) هى موضوع دراسة لبارت : " S/Z " نشرها عام ١٩٧٠م، و هى من أعماله النقدية الأدبية عن قصة لبلزك : " سارسين " من الكوميديا الإنسانية و هى ذات دلالة، و يفوق عدد كلمات بارت التى يتناول بها القصة عن العدد الأصلى لكلماتها بست أو سبع أضعافها، و يقسمها إلى ٥٦١ وحدة قراءة (بعضها عدة كلمات و منها ما يصل إلى عدة جمل)،

حيث اجتاح حدود النص عمداً، ليفجر و يشتت المعنى محققاً انتشاره المستمر، عابراً بالنقد التفكيكى فوق ثبات المعنى و ثبات الحقيقة، نحو اللعب الحر و اللانهائى للمعانى المنتشرة على سطح نصوصية هى ذاتها تبعث على الانتشار. (١) (فتفجر المعنى و تشتته و انتشاره يشبه تلاطم الأمواج على صفحة بحر (نص مفتوح) مُمتلئ بالأمواج (المعانى) اللانهائية.

١١. إعادة الكتابة (**rewriting**)، و هى العملية التى تقوم بها القراءة التفكيكية، فتجعل من القراء مُنتجين للنص بدلاً من مستهلكين له، و هى قراءة لا تتوفر إلا للنصوص التى كتبت أصلاً بطريقة تسمح للقارئ بإعادة كتابتها ثانياً، لأن القارئ يقبل إغراء الطريقة التى كتب بها النص، فطبيعة النصوص هى التى تجعلها تكتب من جديد، أو تغرى القارئ بأن يُعيد كتابتها أثناء قراءته لها. (٢)

و على هذا فمفهوم إعادة كتابة النص يُعد من المفاهيم الأصيلة، و المفيدة فى استراتيجية التفكيك، بحيث يقوم القارئ بالمشاركة فى تكوين (إعادة تركيب) معنى من عدة معانى محتملة للنص، فبدلاً من استهلاك النص، تساهم القراءة إلى حداً ما بإعادة كتابته، بشكل جديد، إلى أن تأتى قراءة جديدة، تُعيد كتابته من جديد بعد ما تفكك كتابته السابقة.

و تخضع كل وحدة منها للتحليل القصير أو المستفيض و منها ما يتم تناوله بالتأويل، و لا يعود بارت إلى ربط أوصال القصة إلا فى نهاية كتابه .

(1) Vincent B Leitch, " Deconstructive Criticism ".p.105.

(٢) جون ستروك : " البنيوية و ما بعدها من ليفى شتراوس إلى دريدا "، ص (٩٩).

١٢. الكتابة (Grammatology) الأولية (و الآلية)، و هى كمفهوم يختلف عن الكتابة الثانوية، التى يفترض الفكر الغربى التقليدى إنها وسيلة لخدمة الكلام، و تهدد صفاء و شفافية اللغة.

إن العلاقة بين الكلام و الكتابة هى أعقد مما تبدو لنا، و النظام الطبقى الذى أعطى الأولية للكلام، و الثانوية للكتابة كتابعة للكلام، و معتمدة عليه، قد تَفكك الآن بفعل قلب "دريدا"له، و هذا يعنى على الأقل، أن الكلام أيضاً هو غير مستقل عن الكتابة، بل و محتاج لها لأنه قراءة لما كُتب، وقد وصف "دريدا "العلاقة بينهما بأنها (الكتابة) تُعد زيادة أو تكملة للكلام، و من مفهوم الإضافة أو التكملة يتضح نقص الكلام التى تكمله الكتابة. (١)

و بعدما يهدم دريدا فكرة الحضور الميتافيزيقى فى الكلام، يتدخل لقلب المعادلة هنا فيجعل كل سمات الكلام للكتابة، و يكشف عن أصل اللغة ككتابة أولية مستقلة عن الكلام و عن مستخدميها، لتظهر اللغة كأثر و اختلاف هى فقط كتابة أولية حتى على مستوى الحوار الداخلى هو قراءة لكتابة أولية (اللغة) (٢) . و ينعت "دريدا "هذه الكتابة الأولية أيضاً بالآلية، و ذلك لسبقها على كل الوجود، و هى التى تحدد وجود كل موجود من خلال تشكل الشىء لحظة مولده لغوياً نطقاً أو كتابةً، و بهذا تصبح

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٢٢)، و يراجع أيضاً ل كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص (٧٢،٧١) للوقوف على مفهوم الكتابة قديماً منذ أفلاطون و عبر الفكر الغربى التقليدى.

(٢) المرجع السابق : ص (٢٢٧)، و يراجع أيضاً ل كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص (٣١، ٣٢، ٣٥ ٣٦، ٣٧).

الكتابة الأولية كآلة تُنتج بغزارة و تلقائية و باستقلال وسبق للوجود ذاته. (١)

١٣. اللامركزية (anti-logocentrism) فى الفكر و اللغة هى نهاية المطاف، التى انتهت إليه التفكيكية بالفكر و اللغة و النقد، فى حملتها ضد مركزية الفكر الغربى لتنسف المحور و المرجع لكل فلسفة أو معرفة حقيقة. فقد كانت كل الفلسفات السابقة تقوم على العقل أو الكلمة أو اللوجوس، كأساس لكل معرفة و ضمان لحقيقتها و صدقها. فجاء هجوم "دريدا "على المركز أو المرجع ليكشف زيف معقل الميتافيزيقا الأخير، و كشفه لزيف مركزية الفكر الغربى باعتباره المحور الرئيسى للفكر، فى حين واقع اللغة ينفى أى استقطاب للحقائق الصغرى. فاللغة لعبة كبيرة ليس فيها مركز أو قطب أو قائد يوجه و ينظم، أساسها التباين و الاختلافات، و من هنا انطلق دريدا ليبحث للكلمة عن منزلة جديدة بعد سقوطها من مركزها المتسلط كمحور و مركز اللغة. (٢)

و يجد "دريدا "ضالته التفكيكية التى يُسقط بها الكلمة عن مركزيتها باكتشافه لمفهوم "الاختلاف "كلعبة تُولد الأثر، و هذا الأثر هو الشرط الأساسى لتحلل جميع المدلولات التى تستمد وجودها من العقل. و بفكرة الاختلاف يتجاوز "دريدا "جميع المشكلات المتعلقة باللغة، ليقف على ولادة الكلام كإمكانية وجود صورى، فكل اختلاف يخلف أثره كاختلاف لدى الآخر (متميز به عن الآخر)، دون الحاجة لمرجع أخير يفسر وجود أى من العناصر

---

(١) د / بسام قطوس : " استراتيجية القراءة التأصيل والأجراء النقدى "، ص (٢٨، ٢٩).

(٢) د / جورج زيناتى : " تأثير البنيوية فى الفلسفة ال << بلا مركز >> عند جاك دريدا "، ص (٨٢)، و يراجع أيضاً د / بسام قطوس: "استراتيجية القراءة التأصيل والأجراء النقدى"، ص (٢٦، ٢٧).

المتمايزة بالاختلاف. و هذا هو نفس الاختلاف الذى كان وراء كل المفاهيم الفلسفية و الميتافيزيقية السابقة فى الفكر الغربى التقليدى. و فى النهاية لا تعود سلسلة الاختلافات إلى أى أصل ؛ بل هى فقط شرط وجود (أو إمكانية وجود) كل دال و مدلول و كل أصل، و من هنا لم يُحط أى مفهوم فلسفى سابق بهذا الأثر (كشرط و منبع لكل معرفة أو وجود)، فهو الشرط أو الأصل الذى لا نستطيع الذهاب إلى أبعد منه، و لكنه متمرد على كل محاولة لتحديده، أو فهمه لكونه شرط إمكانية كل فهم. و بهذا الأثر و عمل الاختلاف ينتفى مفهوم المركز – الذى لسنا بحاجة إليه – كمرجع ثابت لمعارفنا ذلك لكون هذا الأصل (الأثر) ليس له مرجع (أصل) أبعد منه، و لا يُحيط به فهم. إنه سلاح دريدا (الخفى أو السحرى) الذى به يُخلخل و يُقوض كل الفلسفة الغربية و معطيات الفكر، بكشف ما تتضمنه من تناقضات أدت لها مركزية الميتافيزيقيا. (١)

و بعد ذلك تتهاوى الفلسفة و مشكلاتها من تلقاء نفسها، بعدما كشف دريدا زيف مزاعمها و تناقض دعائمها، ليُقيم دريدا فلسفته التى بلا مركز، التى ليست بحاجة للعودة لمرجع (كالكلمة أو العقل أو المنطق) لضمان حقيقة ما تؤكده، و تتلاشى من الأفق مشكلة الأصل الأول، و الحقيقة و المعرفة اليقينية (تصبح أموراً غير ذات جدوى من بحثها) لنتفتح على عالم برىء جاهز للتأويل. (٢)

الآن و قد أحطنا ببحث أهم نقاط التفكيك السابقة، و التى تمثل أدوات النقد التفكيكى لتُكمل مع ما سبقها من عرض لاستراتيجية التفكيك، تصوراً مفيداً عن التفكيكية نأمل أن يكون كافياً وافياً. و قبل تناولنا للنقط التالية من هذا

---

(١) المرجع السابق : ص (٨٣).

(٢) المرجع السابق : ذات الموضع.

الفصل، نوجز أهم الاختلافات المنهجية لأقطاب التفكيك حول مضمون استراتيجية النقد التفكيكى.

أهم الاختلافات المنهجية بين أقطاب التفكيكية :

أننا نجد أن انتشار الممارسة التفكيكية و اختلاف درجة الحماس لها، و توجيه النقد لها، جعلها ضمن لعبة الأنماط الحرة و الغير مقيدة بقواعد محددة، مما أدى إلى تصنيف النقد التفكيكى الأمريكى إلى جناحين مُعلنين، يمثل الجناح الأول (المتحرر) الناقدان الأمريكيان "جيوفرى هارتمان "و "جى هيليز ميلر "، و يمثل الجناح الثانى (المعتدل) الناقد التفكيكى الأمريكى "بول دى مان "الذى مازال يتبع نفس جدية و صرامة دريدا. (١)

أولا : التفكيكية المتطرفة (المتحررة).

(جيوفرى هارتمان، و جى هيليز ميلر) كلاهما من (نقاد جامعة ييل)، و لكنهما من أكثر النقاد تقبلا لاتباع أفكار دريدا عن حرية حدود التفسير، فليس لديهما حدود تُحد من تفسير (تأويل) النص الأدبى. و ثانى ما يميزهما عن الجناح الآخر، أنهما يرفعان من لغة النقد لتكون لغة من الطبقة الأولى مثل لغة الأدب، فهما يُناديان بضرورة التغلب على عقدة النقص تجاه الأدب بأعمالهم التى تسمو لدرجة الأدب، و هما فى النهاية مهتمان بتبرير هذه الحرية التفسيرية التى تأخذ باللعب الحر للمعانى لأقصى مدى ممكن، لتتناسب مع أغراضهما المتناقضة ظاهرياً، و التى تستمد قوتها من تفكيكية دريدا للمعانى الخاصة بالأصل و المتعلقة بحدود النص ولا نهائية التفسير.(٢)

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق "، ص (٩٨).

(٢) المرجع السابق : ص (٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٤).

و هكذا نجد أن التفكيكية المتحررة هى نقد يزدهر منطلقاً من نموذج دريدا، و لكنه قلما ينافس صرامته فى النقاش و الحوار.

ثانيا : التفكيكية المعتدلة (المقيدة) :

و يمثلها كل من (بول دى مان، و هارولد بلوم) اللذان يُخالفان رأى الجناح المتحرر من حيث المبدأين، (حرية التفسير و أدبية لغة النقد كطبقة أولى)، فالنقد لديهما له وظيفة هى شرح أو تفسير (كشف ما بالنص من مجازات و بلاغة)، لذا يجب أن تكون لغته أوضح من لغة الأدب، و أيضاً حرية التفسير مُقيدة بما يقوله النص، وما يحتمله عند فك مجازاته، ومراعاة لحدود بلاغته عند قلب مفاهيمه، لإبراز ما تم قمعه من معان لم تظهر فى النص بفعل التقاليد، باختصار يطبق بول دى مان قواعد التفكيك كمنهجية صارمة و بجدية، و يختلف بلوم عن باقى نقاد ييل فى توجسه من التفكيكية التى يأخذها و يطبقها بحذر، و كأنه متوجه ضدها، فنجده مثلاً يرى ضرورة أن تتخلى التفكيكية عن شكها المدمر، فى مرحلة ما – قلب المعادلة – لتسمح بتكوين (أو بناء) نقد يُفسر النص بناءً على بلاغته و لغته بعد تفكيك مركزية النص، و ذلك لكى نحفظ للشعر شاعريته و للأدب أدبيته، و يخالفهم أيضاً فى مفهومه الخاص عن التناص المُقيد بنسقية النص نفسه. (١)

وبهذا نجد أن "استراتيجية دريدا هنا أكثر انطباقاً مع "هارتمان " و "ميلر "من التفكيكيين الأنقياء مثل دى مان، إنه تطبيق بحثى للكتابة يفترض وجود جميع الحريات النصية التى تقدمها السياقات الغامضة أو الراديكالية أو الموجهة ".(٢)

---

(١) المرجع السابق : ص (١٠٦، ١٠٩، ١١٠، ١١٢، ١١٩، ١٢٤) بالإضافة إلى د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٦٧، ٣٦٨).

(٢) المرجع السابق : ص (١١٩).

وبعد ذلك ننتقل لبحث أثر أفكار كل من نيتشه و هايدجر على استراتيجية النقد التفكيكى.

ثانياً : تأثير مارتن هايدجر على التفكيكية (Deconstruction).

لا يغيب عنا أن الحديث عن أثر فكر هايدجر يذكرنا بتأثره بـ نيتشه، فثورية فكر نيتشه انعكست على فكر هايدجر، مما يجعل قراءة فكر نيتشه ضرورة مهمة لتيسير فهم منطلقات فكر هايدجر، هذا من جهة و من جهة أخرى كون فكر نيتشه قد أصل إلى حدٍ ما بعضاً من أهم الملامح فكر ما بعد الحداثة، و بالطبع منها ما انعكس مباشرة على التفكيك، و لهذا رأينا أن ينقسم بحثنا فى هذه النقطة إلى قسمين لتشتمل على : -

أ ـ أثر أفكار فريدريش نيتشه (١٨٤٤م - ١٩٠٠م) على التفكيكية.

١ - يُعد نيتشه من أهم مؤسسى فكر ما بعد الحداثة، سواء بنقده للأسس الفلسفية، أو بثورته على التقاليد، و هما من أهم سمات ما بعد الحداثة و التفكيكية، فهو أحد ثلاثة مفكرين كبار دشنوا النقد الجذرى للحداثة فى الغرب، و هم : ماركس و نيتشه و فرويد، و إن كان نيتشه هو الأكثر جذرية، حيث طال - تقريباً - كل الأسس التى قام عليها التراث الفلسفى للإنسانية، و بعد الحرب العالمية الثانية، أصبح نيتشه رائداً للتقدميين و الثوريين الذين حطموا كل التقاليد تحطيماً ! [١]

٢ - أدرك نيتشه أن نقد الفكر بفكر آخر لا يؤسس حقيقة، و هى فكرة التجاوز الذى أخذت بها التفكيكية، لتُنتج لا نهائية القراءات، بمعنى أن كل نقد لفكر هو تجاوز لهذا الفكر و فى نفس الوقت هو موضع تفكيك

---

(١) د / عصام عبد الله : " الجذور النتشوية لـ " ما بعد " الحداثة " المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة المنيا، عدد (٢٤) أبريل ١٩٩٧ م، ص (١٥٤) . و يرجع سبب تأخر اكتشاف فكر نيتشه فى الغرب إلى ظروف الحرب التى أخرت من عملية ترجمة و نشر فكر لسنوات عديدة.

أو تجاوز لما قد يجد من مقاربات تخطىء بعضها البعض، و هكذا فلا يوجد فكر أو نقد موثوق فيه أكثر من غيره، و لا أقرب للحقيقة من غيره، و هذا ما راءه نيتشه حيث "لا يستطيع أن ينقد هذا الفكر باسم فكر جديد آخر يطرح نفسه على أنه أقرب إلى الحقيقة، أو على أنه "تأسيس جديد ".

و بهذه الخاصية المنهجية يمكن اعتبار "نيتشه "(الأب الروحى) لما بعد الحداثة، فالمقطع "ما بعد "- **Post** فى عبارة "ما بعد الحداثة **Postmodern**"، يشير إلى انسحاب يحاول أن يبتعد عن منطق التطور فى الحداثة، و أن يبتعد بشكل خاص عن فكرة "التجاوز "النقدى الذى ينحو نحو تأسيس جديد".(١)

٣ - يؤثر نيتشه بفكرته عن (الجنيالوجيا) (**Genealogy**) و يقصد بها البحث عن الأصول، للوقوف على كيفية تكونها و ليس بحثاً عن الأصل التاريخى، و هى الطريقة التى يستدينها منه كل من، هايدجر و يطلق عليها الاستذكار (**Remembrance**)، و دريدا و يطلق عليها التفكيك، و فوكوه و يسميها بالحفريات (**Archeology**). و هى تمثل لديهم جميعاً الطريقة التى يمكن بها تجاوز الميتافيزيقا من الداخل، و ذلك بالكشف عن الكيفية التى تكونت بها الأفكار الميتافيزيقية، و كذلك الكشف عن الآلية التى تعمل بها تلك الأفكار، وهذا ما قصده نيتشه عندما بحث عن أصل الأخلاق حين يقول : "إننا فى حاجة إلى نقد القيم الأخلاقية، لذا فعلينا أولاً أن نضع قيمة القيم موضع التساؤل، و من أجل ذلك أن نعرف شروط نشأتها و الظروف التى

---

(١) المرجع السابق : ص (١٥٤).

ساعدت على ذلك"[١] ، و هذا من أجل كشف زيف الدعائم التى تعتمد عليها الميتافيزيقا فى بناء الأفكار.

وبهذا يكون نيتشه قد كشف (فى الجنيالوجيا) عن بواعث أو مبررات التأويل، التى تعطى أولوية لمعنى على آخر، و تتمثل تلك البواعث فى إرادة و رغبة و توجيهات القوى و السلطات الميتافيزيقية التى تساند التأويلات المختلفة و تدعم تكوينها، و هكذا تتحكم الميتافيزيقا بالطريقة التى نعرف و نتعرف بها على الأشياء، و كذلك بأفكارنا. و بهذا تُعد الميتافيزيقا أو ثقتنا فيها مركزاً أو مرجعاً لمعارفنا، و هى فى نفس الوقت مصدر تناقض و خطأ أفكارنا و معتقداتنا، و هذا بالضبط محور فكر ما بعد الحداثة بعامة، و جوهر استراتيجية التفكيك خاصة، فى الكشف عن زيف التوجيه الميتافيزيقى، و قمعه للفكر الغربى عبر تاريخه فى إنتاج المعنى، و بخاصة فى مسلمة أولية الصوت على الكتابة، التى سيكشف دريدا زيف الوهم الميتافيزيقى المسيطر على الفكر الغربى فى هذه المسلمة، من خلال نقده لمفهوم الحضور الصوتى، ليثبت بذلك أولية الكتابة على الصوت، بل و على اللغة، من خلال إدخاله لمفهوم الأثر (و هذا ما سوف نتطرق إليه بالتفصيل فى سياق هذا الفصل).

٤ – يعد نيتشه مكتشفاً بل و كاشفاً لقناع الزيف عن عالم الميتافيزيقا و عالم الظواهر، و يتوصل بشكه إلى وهم الحقيقة، و هذا ما تأثر به فكر ما بعد الحداثة، و خاصة التفكيكية، فى النظرة للعالم و الحقيقة و القول بلا مركزية المعرفة و الكون بعدما تساقطت المراكز، و انفرط عقد الكون على يد نيتشه.

---

(1) Nietzsche, F : “ Genealogie de la morale. ” Trd H. Albert, de France, Paris, 1946. P.24.

نقلاً عن المرجع السابق : ص ص (١٧٧ – ١٧٩).

و تأكيداً لهذا الإنجاز "يكشف لنا "نيتشه "فى كتابه "أفول الأصنام **Gotzendammerung** كيف "أصبح عالم الحقيقة فى النهاية حكاية "؟ و كيف اختفى العالم الميتافيزيقى، الافلاطونى و المسيحى و المثالى، الذى كان مرجع عالم الظواهر، ثم يتساءل : ماذا يتبقى لنا بعد هذا الاختفاء ؟ أهو عالم الظواهر؟... كلا إننا عندما قضينا على عالم الحقيقة محونا عالم الظواهر".(١)

٥- لقد أدى النهج الشكى الذى انتهجه نيتشه ضد الحدود و المسلمات الفكرية، إلى أن يتبنى نفس المواقف التى يتبناها من بعده جاك دريدا فى نهج متطابق خصوصاً فى استراتيجية الكتابة، و التمرد على المناهج السائدة، و رفض التجمد فى منهج واحد، و اتهام الفلاسفة بمزاوجة الحقيقة، و النظر إلى استخدام اللغة كمجاز و أن معانيها خاضعة للاختلاف.

و هذا يعنى وقوف "نيتشه ضد تلك الحدود و الأفكار التى يحاول دريدا توصيفها. و قد استبق دريدا فى نمط و استراتيجية الكتابة إلى الدرجة التى أصبح الاثنان يبدوان مرتبطين بنوع غريب من التبادل و التماثل. و أسباب ذلك لا يصعب التعرف عليها، حيث كان نيتشه يتحدث غالباً عن البرامج و الخدع المنظمة للتفكيكية (يظهر ذلك من خلال حديث نيتشه عن أصل اللغة وكيفية تسرب و تسلط الميتافيزيقيا على كل خطاب جديد)، متبنياً نفس المنهج فى الشك رافضاً أن يتقولب ضمن منهج أو مبدأ محدد".(٢)

و كان نيتشه يرى أن "الفلاسفة مهتمون ذاتياً بـ ((الحقائق المزدوجة)) و التى تحافظ على ذاتها و توجد من خلال ((المجاز))

---

(١) المرجع السابق : ص (١٨١).

(٢) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ترجمة رعد عبد الجليل، دار الحوار، اللاذقية، سورية، فى ١٩٩٢م، ص (٦٤).

أو المعالجة الرمزية، و إذا كانت اللغة مجازية راديكالية (بمعنى أنها تقوم على الاعتقاد بصحة علاقة ربط الدال بمدلول معين) فإن معانيها (كما أوضح سوسير فيما بعد) ترتبط بسلسلة لا متناهية من العلاقات و الاختلافات، و عندها فإن الفكر يضل فى بحثه عن الحقيقة فيما وراء التحولات الملتوية للغة".[١]

٦ – من منطلق اتفاق التفكيكيين مع نيتشه فى النظرة للغة، التى توصل لها من خلال البصيرة التى مكنته من تفحص التراث الفكرى و الفلسفى ليكتشف المنطق المهيمن على إنتاجها، لذا لا ينبغى علينا إلا أن نثبت له السبق عليهم فى التوصل لمفهوم التناص، الذى يعدونه من أهم إنجازاتهم الخاصة بما بعد الحداثة.

فإن "هذه البصيرة قادت نيتشه إلى الخلاصة بأن جميع الفلسفات، بغض النظر عن طروحاتها المنطقية أو أسبابها، تتكئ على التناص المتنقل للغة الرمزية، و إن إشارات ذلك مكبوحة بشكل منظم و واقعة تحت هيمنة نظام سيادة الحقيقة. إن هذه النسبية الفضفاضة للمعنى و طرق تنكر الفلاسفة أو امتصاصهم للمجازات السائدة هى نقطة الافتراق بالنسبة لكتابات دريدا، كما كانت هى النقطة الأساسية لكتابات نيتشه من قبله".[٢]

٧– كل تلك المسيرة الفكرية و الجدلية، و البصيرة الشكية، مكنت نيتشه من اكتشاف آفة الفلسفة و التفسير إنها (الذات الفلسفية المتعالية)، لذا أصر على قطع الصلة بها و قطع الطريق عليها حتى لا تتسرب من جديد و تكبح الإمكانات المفتوحة للغة الرمزية.

---

(١) المرجع السابق : ذات الموضع السابق.

(٢) المرجع السابق : ص (٦٥).

و بهذا أيضاً يسبق نيتشه التفكيكية و فكر ما بعد الحداثة، و فى ذلك "يستتبع دريدا النيتشوية فى قطيعتها مع هذه الرغبة المتعلقة بعلو الذات، و الخاصة بالمنهج و الشرعية و ((العلوم)) حسب استخدام دريدا معالجة ترتبط بالأيديولوجية القمعية للسبب و التى بدورها (كما يناقش نيتشه) تنبثق عن المعادلة الإغريقية (التى تُساوى) بين الحقيقة و المنطق. و ما يتضمنه السؤال بالنسبة لـ ((نيتشه)) و ((دريدا)) ليس بعض المنطق ((البديل)) للغة الرمزية، و لكن جماعية (الشمولية) مفتوحة للمعالجة (النصية) حيث تتلاشى جميع تلك الأولويات فى لعبة الإشارات المربكة".(١)

و أخيراً نخلص إلى أن موقف نيتشه الناقد للفلسفة، قد تعدى المنظور التاريخى له، إلى كونه استراتيجية لمهاجمة الاصطلاحات المعاصرة فى اللغة. و ذلك لموقفه الناقد لجميع أصول الأخلاق و الفكر الغربى، و كذلك الأسس الإغريقية الباحثة عن السبب و كشفه لكونها خدعة، و لذا رأى أنه يجب أن تتوقف الفلسفة البحث وراء السبب، و تبتعد عن كل ما له علاقة ببلاغة اللغة لكونها مصدراً للتضليل و خطأ الفكر الفلسفى.

و نعتقد أن نيتشه بكل ما سبق قد تنبأ تماماً بالملامح المميزة و المحددة للتفكيكية خاصة، و فكرما بعد الحداثة بعامة، إن لم نقل أنه بحق وضع الأسس لما سيطرأ على الفكر من بعده.

و ننتقل الآن لبحث أثر أهم أفكار مارتن هايدجر على التفكيكية، كواحدة من منظومة نقد ما بعد الحداثة.

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص (٦٦).

ب ـ تأثير أفكار مارتن هايدجر (١٨٨٩م ـ ١٩٧٦م) على التفكيكية.

بداية يُعد تأثير هايدجر أكثر مباشرة من تأثير نيتشه، من حيث مزامنة هايدجر لروح العصر و مناخ الشك الفلسفى، الذى سيفرز التفكيكية قريبة زمنياً لترجمة مؤلفات هايدجر، التى تأخرت فى الظهور بالإنجليزية و الفرنسية، بسبب ما خلفته الحرب العالمية الثانية، و قد يفسر ذلك تطابق وجهة نظر هايدجر مع دريدا، حول العديد من الموضوعات الجوهرية حول المعرفة و اللغة و الأدب.

و قد وصل التطابق بين هايدجر و دريدا، إلى درجة استخدام "(دريدا) فى الطبعة الفرنسية الأولى لكتابه **De la grammatolgie** (فى النحوية)، لكلمة (الهدم) (**destruction**) المحورية فى فلسفة هايدجر، بدلاً من كلمة (التفكيك) التى تحول إليها دريدا فيما بعد ".(١)

ومن منطلق هذا التطابق للمواقف، نحاول الآن تحديد أهم الأفكار التى أثر بها هايدجر على التفكيكية، أو أهم الأفكار التى يلتقى حولها هايدجر و التفكيكية، و التى منها :

١ – فكرة الفصل بين الدال و المدلول، التى يأخذ بها كل من (هايدجر و دريدا) إلى أقصى مدى ممكن لها، مما يقرب العلامة من المتلقى لأقصى درجة ممكنة – و إن كانت الفكرة قال بها"سوسير "، إلا إنها لا تعنى عنده أكثر من اعتباطية العلامة – و لكن كل من هايدجر و دريدا طورا الفكرة، و

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة "، ص ص (٣٠١ _ ٣٠٢).

اتسعت لديهما المسافة بين الدال و المدلول بحيث أصبح تقاربهما شبه مستحيل. (١)

٢ – نظرة هايدجر للغة (و التى من خلالها سيتحدد مواقفه فى أمور عدة) نجدها تتطابق مع وجهة نظر دريدا، بل الأخير يأخذها لأبعد مدى ممكن، فاللغة لدى دريدا – كما سبق و رأينا – هى مستقلة و سابقة على الوجود، و أخيراً (و هنا إضافة دريدا على نظرة هايدجر) إنها تمثل الكتابة الآلية.

فلدى هايدجر اللغة ليست فقط مستقلة، بل هى تسبق الوجود، و هى أداة الوجود للتعبير عن وجود الذات، أو لتظهر من خلال اللغة، و الشعر لدى هايدجر يتساوى مع اللغة، فاللغة الأدبية هى الخلق الحق، الذى لا يتحقق إلا من خلال الشعر، الذى يمثل الإبداع الحر للغة. (٢)

٣ – الثورة على التقاليد و مفهوم (الحضور / الغياب) لدى هايدجر، يظهران من خلال نظرته للغة، حيث اللغة (الشعر) هى التى تتيح و تبيح أو تخفى الوجود فى حركة كشف و حجب متزامنة، و هنا تصطدم اللغة بحائط التقاليد فى كشفها عن الوجود فى حالة نشوئه و تأسيسه الأولى، و من هنا يشن هايدجر هجومه ضد التقاليد مطالبا بنسفها، من أجل العودة لنقطة الإنشاء الأولى (للتسميات الأولى) التى ترتبط بمفهوم الحضور و الغياب فى فلسفته الهيرمنيوطيقية. (*)(١)

---

(1) Martin Heidegger, " Existence and Being " with an introduction by Werner Brock Dr. phil- Vision press LTD – London , 1956, p. 155.

(2) Ibid. P. 155, 156-182.

(*) الهرمينوطيقية هى التأويلية التى تحاول من خلال تحليل عناصر النص اللغوية أن تستخرج المعنى، كما تكشفه لغة النص و الذى يجمع بين المعنى الكلى مع التقيد بمعانى مجموع الأجزاء، حيث تفسر اللغة معانى تركيباتها .

و علـى ذلـك نجـد أن تحقـق الوجـود الأصـيل فـى اللغـة لا يتحقـق بـل يختفى، أو يُغَيَب بفعل أو بسيطرة التقاليد الجامدة و المتوارثة، التى يعمل هدم هايدجر، من أجل كشف زيف التقاليد و فضحها فى حجبها للحضور الأصيل، و هنا نجد الحضور لا يتحقق إلا بالغياب أو للغياب أو فى الغياب، و على هذا نجد أن أى نص لا يعبر عن الحضور و إنما عن الغياب، لأن الحضور قمعته أو حجبته التقاليد، فيكون النص هنا مزيفاً للحقيقة بعيداً عن المعرفة الحقيقية بالوجود الأصيل. (٢)

ونظـن أن المواقـف هنـا واضـحة التطـابق، إذا مـا قورنـت نصـوص هايـدجر بنصـوص دريـدا التـى تعبـر عـن الموقـف ذاتـه مـن نفـس الأسـس التفكيكية(الثورة على التقاليد و مفهوم (الحضور/ الغياب). (٣)

و لنأخـذ مـثلاً علـى ذلـك قـول مـارتن هايـدجر : الكلمـة هـى التـى تُسـاعد الشىء على الوجود و تحفظه... فالكلمة هى التى تُمكن الموجود من الوجود وتكفلـه لـه "(٤)، لنقارنـه بقـول "دريـدا ": إن المكتـوب يُولـد كلغـة... (و عـن الكتابـة) إنهـا تخلـق المعنـى بصـياغتها إيـاه، بإبداعـه فـى نقش... فـى بـروز

---

(1) Ibid. P.44, 283.

و للمزيـد يراجـع أيضـاً، ب غايـدنكو : " فلسـفة الفن عنـد هيـدجر "ترجمـة يوسـف حـلاق، مقـال فـى الموقف الأدبى، عدد (٤، ٥)، أغسطس، سبتمبر ١٩٧٣م، ص (٤٣، ٤٤).

(2) Martin Heidegger, " Being and Time" trans. John Macquarrie and Edward Robinson (1927 in German; New York : Harper & Row 1962)p.44.

(٣) مـارتن هايـدجر : " نـداء الحقيقـة " ترجمـة و تقـديم و دراسـة د / عبـد الغفـار مكـاوى،دار الثقافـة للطباعة و النشر بالقاهرة، عام ١٩٧٧ م، ص (٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤).

(٤) مـارتن هايـدجر : " نـداء الحقيقـة " ترجمـة و تقـديم و دراسـة د / عبـد الغفـار مكـاوى، ص (٢١٢).

(للوجود) "[١]، و من هذا المثال يتضح تطابق رأيهما حول اللغة التى تُشكل وجود الشىء لينفيان بذلك زعم الميتافيزيقيا التقليدية باستحضار الكلمات للأشياء، فهما لا يقران بمرجعية اللغة إلا للغة نفسها، فلا حضوراً للأشياء ؛ بل تغيباً لها حتى تعبر عنها اللغة لتوجدها.

٤ – تنتقل مشكلة الذات من جحيم الشك إلى فوضى النقد التفكيكى، و هى من أهم نقاط تطابق و سبق أفكار هايدجر لأفكار دريدا، حتى فى مراوغتهما للقمع الميتافيزيقى، فنجد هايدجر يلجأ إلى القول بأنه ليس هناك قراءة موثوق بها أو نهائية إلى أن نصل للنص الأصلى (الأول) [*]، متفادياً ظهور الذات مرة أخرى فى ذات المتلقى أو القارئ، أما دريدا فيلجأ للخروج من نفس المأزق بالقول بلانهائية القراءة، و أن كل قراءة تفكيك لسابقة و موضع تفكيك من قراءة لاحقة. [٢]

٥ – لا تختلف استراتيجية الهدم لدى هايدجر عن استراتيجية التفكيك عند دريدا، من حيث الأهداف و العمق النقدى و مجالات التطبيق و المنهج المتبع، و لا يختلفان إلا فى مرحلة طرح البدائل لما تم نقضه، فيرفض دريدا طرح البديل لأن أى بديل سيكون عودة و لجوء جديد للميتافيزيقا، و أصر على ضرورة لا مركزية الفكر، و بطرح هايدجر للحل البديل (و هو العودة لأسس و

---

(١) جاك دريدا : " الكتابة و الاختلاف " ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر ،سلسلة المعرفة الفلسفية،دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب، ط أولى عام ١٩٨٨م، ص (١٤٤).

Martin Heidegger, “ Existence and Being ”p. 44. (*)

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة " ص (٣٠٨).

قواعد الفكر الأصيل المتمثل فى لحظة الوجود الأول الأصيل) [1]، يدخل بذلك تحت سيطرة وقمع الميتافيزيقا من جهة، و يعرض فكره لنقد دريدا الذى رأى أن هايدجر بالرغم من كشفه للعبة زيف الكتابة حيث تقمع المعنى، إلا أنه ظل يكتب ضد الكتابة مستخدما نفس الميتافيزيقا التى نقدها و كشف زيفها[2].

٦ – نهاية الميتافيزيقا (أى كشف الطريقة التى تُسيطر بها على خطاب السابقين لذلك رفض تأثيرها) على يد هايدجر، و إرساء استراتيجية التفكيك (الهدم) هما أهم ما يَدين به دريدا لهايدجر، حيث يجيب دريدا عندما سئل عما يَدين به لهايدجر قائلاً : "إن دينى لهايدجر هو من الكبر بحيث... أُوجز المسألة بالقول إنه هو من قَرَعَ نواقيس نهاية الميتافيزيقا و عَلَّمنا أن نسلُك معها سلوكاً ((استراتيجياً)) يقوم على التموضع داخل الظاهرة، و توجيه ضربات متوالية لها من الداخل... حتى يتصدع الكل و هذه العملية هى ما دعوته بـ ((التفكيك))". [3]

٧ – مأزق الذات التأويلية، يدركها هايدجر و يحاول تجاهلها، و يتبعه دريدا بنفس التجاهل لها. فكان هايدجر قد شرع فى كتابة اسم الكينونة (على أنها الذات التى تُدرك المعنى) ثم قام بوضع علامات (#) للشطب على الكينونة فى كتابه ((فى الطريق نحو اللغة)) و أصبح يكتبها فى كتاباته الأخيرة، و دريدا يمر بنفس تجربة التوتر فى كتابه ((علم الكتابة))، مما دعى

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق " ص (٧٦).

(٢) المرجع السابق : ص (٧٧).

(٣) جاك دريدا : " الكتابة و الاختلاف " ترجمة كاظم جهاد، تقديم محمد علال سيناصر، ص (٤٧) . و يراجع أيضاً جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى دريدا " ترجمة محمد الشيخ، مجلة دراسات عربية العدد (٢٧)، مايو، يونيو ١٩٩١م، ص (٥٣).

"جان قّال "للتساؤل عن ما تعنى هذه الكينونة المشطوب عليها، فهى إما لعدم وجود اسم مناسب للكينونة، و إما لأن الكينونة ليست إلا مجرد اسم(١) أى أن ذات المتلقى كانت سبب حيرة لكليهما.

و فى النهاية، نود أن نسأل عن تفسير تطابق فكر دريدا مع كل ما قاله هايدجر، مع الاعتراف بأن تفسيرنا الذى أوردناه فى بداية هذه النقطة من البحث ليس كافياً أو مقنعا، إلا إذ أخذنا بوجهة النظر التى ترى سبب هذا التشابه راجع لاشتراكهما فى نفس الحقبة المعرفية و الإبسيتيمية المعرفية، (بمعنى أن سمات البنية المشتركة (لهايدجر و دريدا) لنفس الحقبة المعرفية هى السبب فى تطابق أفكارهما) و هذا احتمال جائز علمياً.

و هناك احتمال أخر غير الاحتمال الأول، و هو : إمكانية إطلاع دريدا مباشرة على فكر هايدجر قبل نشر ترجمة له، و نَسَبَهُ لنفسه من باب التناص أو موت المؤلف، و هذا جائز لكون دريدا قد تناول فكر هايدجر بالتشريح(*) (بالتفكيك) من خلال تفسير هايدجر لنصوص نيتشه. و الاحتمال الثالث هو كون ما نكتشفه هنا من تطابق ما هو إلا سقطة أو تكرار بالخطأ(*)، يكشف لنا عن مؤسسات تتحكم فى الفكر و الثقافة العالمية، و تهيمن على المفكرين ليُنتجوا لها ما يتناسب مع مخططاتهم للسيطرة على

---

(١) جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى دريدا " ترجمة محمد الشيخ، مجلة دراسات عربية العدد (٢٧)، مايو، يونيو ١٩٩١م، ص (٤٣، ٤٤).

(*) كان ذلك فى كتاب جاك دريدا (فى النحوية)، ترجمة جياترى شاكرافرتى سبيفاك، عام ١٩٧٧م .

(*) نقصد أن هيدجر قد يكون مأجور و مدعوم من جهة معينة، و نفس الجهة كررت و طلبت من دريدا أن يردد نفس الأفكار بما فيها من مغالطات، بعدما لم تجنى ثمارها من هيدجر الألمانى لتأخير ترجمة كتبه للغات العالم المقصود نشر هذا الفكر فيه . و قد يكون هذا التكرار مقصود للتأكيد أو المساندة أو للتضليل .

العالم من خلال السيطرة على ثقافته، و احتكار الفكر، و استعمار العقول (حين قال أن اللغة هى التى تهب الوجود حتى الوجود الإنسانى و قوله أن اللغة هى بيت الإنسان و هى تملكه و تستخدمه)(*) من أجل بسط السيطرة على مقدرات الشعوب، و إن كان هذا لا يخص موضوع بحثنا و لكنه بالتأكيد مهم، و لهذا كانت ضرورة تناول هذا الاحتمال و ليس تبنيه، و تعتمد صحة أم خطأ هذا الاحتمال على مدى صدق نصوص كتاب "المتلاعبون بالعقول".(*)

و الآن بقى علينا أن نختبر مجهرياً أهم الأفكار و المفاهيم التفكيكية، لبحثها كتبسيط لشرح فلسفة التفكيك من جهة، و من جهة أخرى فحصها لنتعرف على ما بها من أفكار قد تُعلى من شأن و أهمية التفكيكية أو قد تمثل مواضع لنقد التفكيكية.

ثالثاً : التفكيكية تحت المجهر

و هنا نبحث التفكيكية كنظرية نقدية لها ما قدمته للفكر و النقد الأدبى، و عليها سقطات إما سهواً أو عمداً حتمته المنهجية و يشتمل هذا التحليل للتفكيكية على ما يلى :

أ ـ الجوانب الإيجابية للتفكيكية.

مما لا ريب فيه أن للتفكيكية كنظرية أو كاستراتيجية نقدية فضلاً فى إضافة بعض النقاط المفيدة للفكر و النقد الأدبى، و هى ما يمكن أن نطلق عليها أهم إنجازات التفكيك، التى منها :

(*) مارتن هايدجر : " نداء الحقيقة " ترجمة و تقديم و دراسة د / عبد الغفار مكاوى، ص (٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢).

(*) أ. د / هربرت أ. شيللر " المتلاعبون بالعقول " ترجمة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة عدد (٢٤٣)، الإصدار الثانى، الكويت فى مارس ١٩٩٩ م.

١ – كشفت التفكيكية عن علاقة التركيب اللغوى بعلم المعانى، و هذا ما لم يعيره النقد السابق عليها أى اهتمام، فتكشف لنا التفكيكية أن التركيب ينطوى دائماً على فائض (زيادة) يتجاوز الدلالة و متطلباتها. فالشكل النحوى و الصرفى يخدم الدلالة و يبيح وقوع المعنى، لكن هذا المعنى و هذا التركيب ذاته لا يتم إلا من خلال روابط، و حروف و فراغات بيضاء بين الكلمات، ليست هى جزءاً من الدلالة و لا هى من النحو. و لهذا فإن تقرير المعنى و الجزم به يستبعد دائماً مثل هذه الآليات على أنها غير أساسية للمعنى أو للنحو، أى أن ((آلية)) الكتابة و سبب استبعادها دائماً هى نفسها آلية ((التركيب)) و سبب إخضاعه لعلم المعانى. (١)

و لهذا وجدنا "النقد بكافة أشكاله (النقد تعددى أو أحادى الطرح، و النقد الشكلانى و البنيوى و النقد الموضوعى) لم يأخذ فى الحسبان قضية علاقة التركيب بعلم المعانى و إنما ظل يوظفها توظيفاً كلاسيكياً : التركيب فى خدمة المعانى المتعالية ".(٢)

٢ – نرى أن التفكيكية قد أضافت للنقد عامة و النقد الأدبى خاصة سلاحاً نقدياً ناجعاً جداً فى الكشف عما بالنصوص من تناقضات، و ترسبات لسلطات خارجية تمارس عمليات قمع و قهر للمعانى فى النصوص، و قد سبق و تناولنا ذلك بالتفصيل فى هذا الفصل عند تناولنا (لخطوات استراتيجية التفكيك) (٣)، و فى حينه عبرنا عن وجهة نظرنا فيما لو اكتفت التفكيكية

---

(1) Jacques Derrida : “ Dissemination ” trans. Barbara Johnson (Chicago : university of Chicago Press, 1981), pp. 220-221.

(٢) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد البنيوية " ص (١٩٧).

(٣) المرجع السابق : ص (٢١٧).

بالتحليل إلى المرحلة الثالثة، و رأينا هذا يتفق مع الخط التفكيكى الذى يتبناه هارولد بلوم.

وعلى ذلك نجد أن من أهم إيجابيات التفكيكية "أنها شحذت الوعى بما يخفيه النص أو الخطاب، و أتاحت الآليات و الإجراءات التى تُعين على كشف المسكوت عنه مقابل المصرح به... فنصيب التقويضية (التفكيكية) من سوء الفهم قد يفضى بها إلى السجال العقيم الذى سيحول بينها و بين ما تَعد به من ممارسة واعية و منتجة".[١]

٣ – إن قول التفكيكية بعدم الهيمنة على المعنى لا يعنى حرية غير مُقننة، بل تعنى فقط الكشف عن فيض من المعانى التى تحاول دائماً التقاليد أن تكبحها لتمنع ظهورها.

"و لذلك لا يسعى دريدا إلى إطلاق النقد فى أى اتجاه أو إلى إيجاد << سلطة تقول أى شيء تقريباً >> لأن منهجيته تعتمد أساساً على فهم النص فهماً تقليدياً أولاً ثم معارضة معانيه التى حددتها الآليات النقدية التقليدية كى يثبت مقاومتها للتحديد و التقييد. و لا يمكن أن تُعتبر هذه الخطوة خطوة باتجاه التحرير، بل هى خطوة تسعى إلى كشف ما يفيض عن حدود المعنى، و كيف يتناقض هذا الفائض مع ما يقول به النقد التقليدى".[٢]

٤ – قد يكون من المفيد النظر للتفكيكية بنظرة أكثر دقة، للوقوف على ما قد تتضمنه من أفكار صائبة تظهر و كأنها مقولات تُؤدى للفوضى، مثل مقولة التفكيك بأن (كل قراءة هى إساءة قراءة)، فهى واقعياً صحيحة، بقدر

---

(١) المرجع السابق : ص (٢٢٦)، و للمزيد يراجع د/ بسام قطوس :" استراتيجية القراءة التأصيل و الأجراء النقدى " ص (٢٢، ٢٣).

(2) Jacques Derrida : “ Of Grammatology ” trans. Gayatri C Spivak (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1976), p.158.

مصداقية تاريخنا الفكرى و الثقافى، بمعنى أن لو كانت كل قراءة هى صحيحة ما تكون لدينا أى تاريخ فلسفى أو علمى، بل كانت لدينا مقولات ثابتة مختصرة لا تتكرر و لا تتناقض، و لو كان الأمر كذلك ما احتوى الفكر البشرى إلا على قراءة واحدة فقط لأى خطاب أو نص، و فى نفس الوقت نجد نفس العبارة تصدق إذا ما قُلبت لتصبح (كل قراءة هى صحيحة إلى أن تأتى قراءة جديدة تكون أصح منها)، أى أن (كل قراءة هى تصحيح قراءة).[1]

٥ – يمكن النظر للتفكيكية على أنها فلسفة مادية، بمفهوم خاص جداً يختلف عن المفهوم الميتافيزيقى، الذى يجعل منها نقيضاً للمثالية، مادية تعتمد على الصدفة و يؤسسها صمود النص أمام أى محاولة لاحتوائه.

فها هو جواب "دريدا"على سؤال ما إذا كان عمله يمثل مساهمة فى الفلسفة المادية ؟. فيُجيب قائلاً : "هناك ماديات أخرى سأمضى عليها عن طيب خاطر. ماديات ما قبل – أفلاطون أو ما قبل – سقراط لم تدخل فى الحيز الميتافيزيقى. ماديات ترجع بنا إلى ديموقريطيس و إلى تفكير معين حول الصدفة... ثم إن نظرية النص التى أعمل عليها مع آخرين هى أيضاً إذا شئت مادية. لا أقصد بالمادية حضوراً للمادة و إنما صمود النص أمام كل محاولة لاحتوائه، و الاحتواء هو مثالى دائماً. هذا هو ما يُحدد العلامة المكتوبة، التى ليست علامة مادية أو محسوسة، و إنما شىء لا يسمح بأمثَلَته (من المثالية) أو باحتوائه. هناك إذن مادية لن أرفضها و لكنى أقبلها بتحفظ، و هى لن تكون مادية آلية أو جدلية. ستكون مادية غير جدلية ".[2]

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص ص (٣٩١ _ ٣٩٥).

(٢) جاك دريدا : " الكتابة و الاختلاف "، ص (٥٢).

و هذا يعنى أن التفكيكية فلسفة تمثل خطاً مادياً (من حيث تمسكها بمادية النص و تركيبات اللغة)، غير جدلياً بمفهوم خاص (ترفض الجدل من منطلق رفضها للميتافيزيقيا التى تُفككها و تقاوم تكونها من جديد).

٦- التفكيكية لا ترفض التاريخ، و إنما ترفض النظرة الغائية له، و كذلك ترفض استخدامه الميتافيزيقى، و هذا ما يوضحه دريدا من خلال دفاعه عن اتهامه بإهمال التاريخ أو رفضه له، حيث يقول : "أما عن نسيان التاريخ فقد أوضحت مراراً و تكراراً أننى تاريخانى بصورة كاملة، و أن ما يهمنى دائماً هو الانحدار التاريخى لجميع المفهومات التى نستخدمها... إلا أن ما شجع على إطلاق هذه التهم، أو غذاها هو كون مفهوم ((التاريخ)) بقى مستخدماً لدى الكثير من الفلاسفة و المؤرخين و مؤرخى الفلسفة... ضمن نزعة غائية، بدت لى هى الأخرى ميتافيزيقية، مما جعلنى أقف منها موقف المتحفظ أو المحترس باستمرار. و لكن ليس باسم لا – تاريخية أو لا – زمانية، و إنما باسم فكر آخر للتاريخ ".(١) أى بالفكر النقدى الذى يكشف عن الكيفية (الدور الميتافيزيقى) التى تكون بها هذا التاريخ، و من جهة أخرى يستخدم التاريخ للكشف عن المؤثرات الميتافيزيقية، و التقاليد التى ساهمت فى تكوين المفاهيم، و أيضاً للكشف عن كيفية تكون أصل تلك المفاهيم.

٧ – التفكيكية لا تُفهم إلا من خلال فهم طريقة عمل مفاهيمها، المترابطة و المتداخلة و المتكاملة، أى ككل متآزر فى سلسلة حلقاتها غير منفصلة، بل يعتمد كل مفهوم على غيره، وهذا يتضح من محاولة "دريدا "تحديد دلالة مفهوم الاختلاف كما اشتقه "دريدا ".

---

(١) المرجع السابق : الموضع ذاته.

فهو يرى "أنها تتضح من خلال سلسلة من المفردات الأخرى التى تعمل معها. ((الكتابة)) مثلاً أو ((الأثر)) أو ((الزيادة)) أو ((الملحق))، و هى جميعها كلمات مزدوجة القيمة أو ذات قيمة غير قابلة للتعيين... إنها كلمات ليست كلمات، و لا مفهومات... إنها إذن سلسلة تتمتع كل حلقة منها باستقلالها النسبى، و لكن تتكرر فيها الحلقة المجاورة ".(١)

٨ – التفكيكية هى فلسفة و طريقة نقدية لقراءة و كتابة النصوص، تثور على المنهج التقليدى، و هى تسمح بالتكرار و التعلم، و قابلة للتواصل من خلال عناصر تقنية، و أخرى فلسفية، حيث "هناك قواعد، و طريقة لقول النص، لا بمعنى المنهج بالطبع... و هناك أنماط... يمكن أن تتكرر بالنسبة لى أولاً، ثم بعد ذلك أن تتكرر أمام الآخرين و من قبلهم. إنها تُعَلَم كتقنيات ففيها عناصر تقنية وفلسفية، قابلة للتحويل إلى أدوات، وهى قابلة للإيصال".(٢)

٩ – إن التفكيكية تعد فلسفة ثورية، من حيث ثورتها على المركزية الميتافيزيقية، لأن فى "مثل هذه الفلسفة، أو بالأصح هذه الرؤية للأشياء، نلاحظ تلاشى كل رجوع إلى الإنسان كفاعل (بوصفه) محوراً للفكر، أى تتلاشى فلسفة الذات لتحل مكانها البنية الأولية، بنية لعبة الاختلافات و الفروق داخل اللغة ".(٣)

و بهذا تكشف التفكيكية مركزية الفكر الغربى، و تحاول أن تنفى مركزه أو تلغيه، بأن ترجئ الدلالة، من خلال رد الموجودات إلى لحظة تَوَلُد اللغة

---

(١) المرجع السابق : ص (٥٣).

(٢) المرجع السابق : ص (٥٥).

(٣) د / جورج زيناتى : " تأثيرات البنيوية فى الفلسفة _ الفلسفة ال << بلا مركز >> عند جاك دريدا "، ص (٨٣)، و يراجع أيضاً د / بسام قطوس : " استراتيجية القراءة التأصيل و الأجراء النقدى " ص (١٨).

كبنية أولى، من الأثر و لعب الاختلاف، و هى فى النهاية وجهة نظر، تعبر عن رفضها الاستمرار ضمن بنية مركزية الكلمة.

و الذى يؤيد وجهة النظر التفكيكية فى الفصل بين الدال و مدلوله، و تفتيتها لمركزية الكلمة، و رفضها لفكرة الحضور الذاتى للأشياء فى الكلمات، هو تفرقة البحوث اللغوية بين العلاقة الطبيعية بين الألفاظ و دلالاتها و بين العلاقة المكتسبة بينهما، "فلا شك أن بين الألفاظ و دلالاتها صلة و لكنها صلة مكتسبة، أى لم تنشأ مع تلك الألفاظ أو تولد بمولدها، وإنما اكتسبتها الألفاظ اكتساباً، بمرور الأيام و كثرة التداول و الاستعمال ".(١)

١٠ – التفكيكية هى استراتيجية تفكيك للميتافيزيقا، حيث "أن الميتافيزيقا، كما يعرض "جاك دريدا "جنيالوجيتها (فى تفكيكه لها بحثاً عن كيفية تكونها)، بنية عنيفة (شديدة الترابط) من المفاهيم و خطاب مترابط من التعارضات الموحدة... إن ((تفكيك)) الفلسفة أى الميتافيزيقا معناه التفكير فى الجنيالوجيا التى بُنية عليها هذه المفاهيم و كيفية ولاء تلك المفاهيم و استبطانها لأسباب تَكونها ".(٢)

و يُعد هذا هدف نقدى غير مسبوق، فالتفكيكية لا تقدم نقداً للفلسفة أو للميتافيزيقا، بقدر ما تقدم نقداً للكيفية التى بنيت عليها الميتافيزيقا و الفلسفة، من خلال تحليلها لكليهما، أو من خلال الكشف عن الكيفية التى نُسجت بها الأفكار الفلسفية و الميتافيزيقية و هذا قد يعد مجالاً غير مسبوق إلى حدٍ ما،

---

(١) د / إبراهيم أنيس : " الألفاظ و معانيها " مجلة العربى العدد (١٠٠)، مارس ١٩٦٧م، ص (١٣٤)، و للمزيد يراجع أيضاً (١٣٥).

(٢) جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى جاك دريدا " ترجمة محمد الشيخ، مجلة دراسات عربية، العدد (٢٧) مايو – يونيو ١٩٩١، ص (٤٥).

إذا ما اعتبرنا كل من نيتشه و هايدجر من الرواد المبشرين بهذه الفكرة، و لهذا هما من رواد فكر ما بعد الحداثة.

١١- إن خروج التفكيكية على التقاليد والمنطق وعلى كل الأعراف، يجعل منها تجربة زاخرة بالتحرر العقلى، بعيدة عن السلب والقمع، و زاخرة بالجرأة فى التجديد والثورية بشكل غير مسبوق، "فهى على ما تُمارس اليوم ليست شكلية، بقدر ما هى إشكالية، بمعنى أنها تتشكل دوماً بما يتجاوز كل شكلنة. ولهذا فهى ليست منطقية أو نظرية، بقدر ما هى تطبيقية (practically) و استراتيجية، بمعنى أنها لا تبحث عن صدق المقولات أو صحة القياسات، و لا تهتم بالتماسك الشكلى أو التطابق المعرفى، بقدر ما تهتم بأن تُمارس العلاقة بالعقل بطريقة خلاقة، منتجة و فعالة، تسهم فى تحويل العالم و إعادة تشكيله، أى بقدر ما تتيح نسج روابط جديدة بين الكلمات و الأشياء، أو بين الأفكار و الأحداث، أو بين الكلمات و الأفكار".(١)

و على ذلك نجد التفكيكية استراتيجية "عقلانية لا تعمل بحسب منطق الاستدلال المستقيم و المُحكم، و لا بحسب منطق التعالى المحض و القبلى، بل تعمل بمنطق تعددى تركيبى... هى ممارسة فكرية محايثة جمالية تتفتح على المختلف و الضد و الهامشى... و لأنها كذلك فهى عقلانية نقدية، و لكنها تفكيكية، بمعنى أنها تشتغل بنوع من نقد النقد، على نقد العقلانيات النقدية ذاتها، لتعرية ما يتوارى خلف الصلات المنسوجة مع العقل، من آليات

---

(١) آلين تورين : " نقد الحداثة " ترجمة د / عقيل الشيخ حسين، مجلة المنطلق، العدد (١١٤)، شتاء ١٩٩٦م، ص (٦٩).

اللامعقول أو الممارسات المعتمة (النصوص الغامضة) أو الأبنية المُعيقة (الصياغات المُضللة) أو القوالب المتحجرة أو الثنائيات الخادعة".(١)

و "بهذا المعنى فالتفكيك هو أبعد ما يكون عن السلب و الهدم. إنه بالعكس عمل مثمر بنّاء، يقوم على توسيع ما يضيق أو إزالة ما يعيق أو فتح ما ينغلق أو إطلاق ما ينحبس، بصورة تجعل ما يمتنع على القول أو الفعل أمراً ممكناً".(٢)

وعلى ذلك فنحن مع التفكيكية لا نقرأ العمل الفلسفى لنستخلص منه مذهباً أو نسقاً، بل لنتعرف على أدوات وأصعدة الفهم، لا للحصول على حلول للمشاكل المطروحة، بقدر ما نتعرف على طرق طرح المشكلة و إلى أين وصلت، و أخيراً نحن لا نُقر بتقدم فلسفة على أخرى، بقدر ما نرصد ما غاب أو استبعده الفلاسفة من تفكيرهم، لنجعل من هذا المُستبعد فلسفة بنفس منطقهم تُكمل ما غاب عن فلسفات أخرى. (٣)

ب ـ نقد استراتيجية التفكيك

نَتناول هنا أهم ما تواجهه التفكيكية من نقد بالإضافة لنقاط ضعفها، هذا لأن التفكيكية كاستراتيجية مراوغة سنرصد لها بعضاً مما تطرفت و أسرفت فى العمل أو القول به لتتحول بعض إضافاتها النقدية إلى نقاط ضعفها (و هذا ليس تناقض منا بقدر ما هو سمة للتفكيكية ذاتها، تُحتم علينا الأمانة العلمية عرضها بمحايدة تامة) و يتضح ذلك فيما يلى : –

---

(١) المرجع السابق : ذات الموضع.

(٢) المرجع السابق : ذات الموضع.

(٣) المرجع السابق : ص (٧٠).

١ – لقد كان السبب الذى حلت به التفكيكية محل البنيوية هو عدم تمكن البنيوية من تفسير كيفية تولد المعنى المقصود، لهذا جاءت التفكيكية لتكشف عن كيفية تولد المعنى، و دفاعاً عن المعنى. و فى النهاية أغدقت علينا بلا نهائية المعنى، فالتفكيكية كاستراتيجية تُنادى بتحرر المعنى و تدفعه للهروب و المراوغة لتكون المحصلة و النتيجة النهائية هى تأجيل المعنى و انفتاحه كإمكانية قد تسهم فى تعين أى معنى ؛ بل و كل معنى. فماذا بقى من المعنى إلا الحديث عنه من خلال غيابه ؟، و تَبخره الذى حتمته استراتيجية التفكيك. (*)

٢ – من أهم المفاهيم المحورية فى التفكيكية مفهوم الأثر، و هو مفهوم ميتافيزيقى، فكيف تنطوى عليه التفكيكية و هى التى ترفض و تفكك كل ميتافيزيقا ؟ و ما جدواها و هى تتضمن مثل هذا التناقض ؟

"فالأثر بذاته مفهوم ميتافيزيقى شأنه شأن المفاهيم التى تؤكد الحضور الذاتى، أو تؤكد نفيه بوصفه ((كائناً قد حضر فى لحظة زمانية مكانية معينة)) ثم مضى و انقضى. و ليس ثمة اختلاف بين المفهومين سوى القيمة ((الإيجابية أو السلبية)) و القيم فى حد ذاتها ليست جزءاً من الوجود. لكن دريدا يستلهم هذا المفهوم من الموروث الميتافيزيقى – مثلما استلهم غيره – حتى يدفع به إلى أقصى حدوده المنطقية ".(١)

و بالطبع ليس فقط الأثر من المفاهيم الميتافيزيقية التى تسربت إلى التفكيكية ؛ بل هناك مثلاً مفهوم "الاختلاف "الذى لا يقل أهمية عن الأثر، بل

(*) لمزيد من التفصيل : يرجى مراجعة د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٩٦، ٣٩٧) .

(١) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (٩٤).

و يشتركان معاً فى عملية تحديد الحضور كما تراها التفكيكية، فـ "الأثر هو هذا الجزء الذى من خلاله يستطيع الحضور أن يحضر، و أن يكون هو هو بذاته. و ما لم ((ينطوى)) الحضور على هذا ((الأثر)) (على هذا التوقيع) فإن الحضور نفسه لن يحضر، و لن يفصح عن نفسه، و هكذا يكون الأثر هو ((الاختلاف)) فى أدنى صوره، لكى يهيئ للحضور أو الذات بنية اختلافية تضعها فى علاقة تقابلية تداخلية مع الآخر.[١] "

٣ – تعتمد التفكيكية على النص لتفكيكه (أو على التناص)، و لكن إذا ما وضعنا مفهوم النص جنباً لجنب مع مفهوم الكتابة، كشف لنا ذلك التقارب عن تناقض قائم فى فلسفة التفكيك، ذلك "لأن الكتابة بالضرورة تنص على غياب. فلا وجود للنص بذاته و لذاته، إذ لو تحقق النص فى عريه الوجودى، لابد أن يتحول بالتالى إلى إشارة مهمتها أن تشير... و قوانين النص و سماته هى نفسها سمات و قوانين الاختلاف (أى الكتابة) لا غرو أن نجد كل من بارت و دريدا يصرح بغياب النص غياباً مطلقاً".[٢]

فبعد هذا التغيب للنص ماذا بقى للتفكيك أن يفسر و ينقد ؟ ربما هذا هو السبب وراء حرية التفسير و لا نهائية المعنى، و توسيع مجال النص ليبتلع العالم كله ليتحول النص لمكتبة عالمية، لتجعل الناقد التفكيكى يرى العالم كله فى حبة الفاصوليا. [*]

٤ – التفكيكية فى حربها على الذات الإنسانية كمركز ميتافيزيقى تؤكد موت المؤلف، و بذلك انتهى مفهوم الإبداع الأدبى (فى مقابل ظهور إبداع

---

(١) المرجع السابق : ذات الموضع.

(٢) المرجع السابق : ص (١١٩).

(*) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٦٦، ٣٦٨، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣) .

اللغة)، و لكن التفكيكية تسمح فى الوقت نفسه بمولد القارئ الذى يتقلد بمفرده السلطة الوحيدة لتفسير النص، حتى و لو كان دفاعهم (بأن قراءة كل قارئ تُفكك بقراءة قارئ أخر أو بقراءته اللاحقة) أى لا تتصف بالثبات و إنما باللانهائية، و هذا غير مقنع لكونها جميعاً تصدر عن نفس الذات الفلسفية التى يرفضونها[**] (أى هى ككل تمثل البنية الإنسانية)، و هم (دعاة التفكيك) نفسهم يناقضون أنفسهم عندما يستحضرون مقولات مثل إبداع اللغة، و اللغة الإبداعية، و آلية اللغة و أسبقيتها، إذ كيف يتفق هذا مع حرية القارئ فى أن يقول ما يرى فى النص. و من جهة أخرى نجدهم يقولون إن النص هو الذى يخلق قارئه، و يملى عليه ما يبوح به النص ليُعيد القارئ كتابة النص من جديد.

وها هو أحد دعاة التفكيك "فبارت يسعى إلى فتح الكتابة و تحرير النص من خلال ولادة القارئ، تلك الولادة التى تقتضى وفاة المؤلف : ((إن مولد القارئ لابد أن يكون على حساب موت المؤلف))... ليس هنالك خلف النص أحد ناشط (الكاتب) و أمامه هناك آخر سلبى (القارئ)". [1]

وهل بذلك صدقت التفكيكية فى تخلصها من مركزية الفكر الميتافيزيقى ؟ و خصوصاً مركزية الذات، و هل خَلَصَت الفكر من التناقضات ؟ أم أبدلتها بمفاهيم ملتبسة و أسلوب مراوغ حتى نظن أنها قد خلصتنا من تناقضات الفكر التقليدى.

(**) للمزيد عن فكرة الذاتية و عودة التفكيكية إليها يراجع، د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٠٨) .

(١) د / ميجان الرويلى : " قضايا نقدية ما بعد بنيوية "، ص (١٥٨)، و للمزيد يراجع ص (١٥٩، ١٦٤، ١٦٥).

٥ – و هناك أيضاً فكرة ميتافيزيقية و هى مؤثرة جداً فى التفكيك، و هى فكرة أو خطوة القلب (قلب معادلة الطرفين بأن يحمل كل طرف سمات الطرف الآخر)، فكان النظام التقليدى يدعم أو يكبح ظهور الطرف الأخر الذى تُظهره، و تُعلى التفكيكية من شأنه على حساب الطرف الآخر، و نحن نرى أن فكرة عملية القلب هنا لا تستند إلا على قمع جديد (و لكنه عكس القمع الأول الذى مارسته التقاليد سابقاً)، و لهذا نراها صورة جديدة للتسلط الغير مُبرر من قبل ميتافيزيقا التفكيك هذه المرة.

و الغريب هو مكابرة دريدا، برفضه الاعتراف بحقيقة هذا المأزق، بالرغم من وقوع استراتيجيته فيه، لتكشف تعمده للمراوغة، و التهرب من تحمل مسؤولية ما آلت إليه مقولاته (خطواته) التفكيكية، فهو فى دفاعه عن خطوة القلب يرى أن "البقاء داخل هذه المرحلة يعنى الانصياع لا محالة إلى آليات النظام الذى تم تقويضه... بمعنى هيمنة النظام و آلياته على الناقد الذى كان يسعى إلى تشتيت بنيته و تفجيرها.

و على الرغم من هذه المحاذير، إلا أن دريدا لم يقدم بديلاً غير ميتافيزيقى، فقد تحدث كثيراً عن خطوة خامسة... يسميها التحويل (**transformation**) : أى أن آليات التقويض و إجراءاته تفضى بالتالى إلى تحويل البنى و الخطاب إلى منطقة لا تتسم بسمات التمركز الميتافيزيقى. لكن معالم هذه المنطقة لم تتحدد بعد، و لم يحاول دريدا أن يبينها ؛ بل هو يرى أن كل بديل لا بد أن يكون آلية قمعية، و أن كل محاولات الخروج من الميتافيزيقا ما هى إلا عودة سريعة إليها ".[١]

---

(١) المرجع السابق : ص (٢١٨).

و لا ندرى إذا كان هذا يعنى حقاً صدق قولنا بأن "التقويضية تصل فى النهاية إلى التسليم بهيمنة و سيادة تمركز اللوجوس (سيطرة قوانين اللغة أو الكلمة) ليس فقط لأن محاولات الخروج هى نفسها خطوات العودة إليها، و إنما أيضاً لأن لغتنا التى تحكمنا هى التى تُعيدنا إلى الميتافيزيقا و تضعنا تحت حكمها. يقول دريدا ((ليس لنا لغة _ لا تركيب و لا معجم _ غريبة عن هذا التاريخ [تاريخ الميتافيزيقا] ؛ فلا نستطيع التفوه بمقولة تقويضية واحدة من شأنها ألا تكون قد تسللت مسبقاً إلى الشكل و المنطق و الفرضيات الخفية التى تخص ما تسعى، تحديداً إلى مقاومته... فكل استدانة (استلهام أو استدعاء لألفاظ) معينة تجر معها كامل الميتافيزيقا))". [(١)]

٦ – حاولنا قدر الإمكان الكشف عن جذور الحداثة فيما سبق من البحث، و كان فى كل خطوة يتكشف الجذر أو الفكرة بشىء من المنطقية، و لذلك قد يكون غريباً أن ننسب مجمل مشروع ما بعد الحداثة (التفكيكية) إلى تنبؤ بعض الشكليين الروس. و كأن التفكيكية جاءت كخطوة حتمية للمقدمات النقدية التى مهدت لها.

فنجد أن "من المثير للاهتمام أن بعض الشكليين الروس استطاعوا فى رفضهم المبكر جداً لسلطة القارئ فى تفسير النص، أن يتنبئوا ببعض المفردات الأساسية لاستراتيجية التفكيك. كتب ((فكتور زيرمونسكى عام ١٩١٩)) : ((إن المضى فى البحث فى هذا الاتجاه يقودنا إلى نظرية تصبح فيها عناصر مختلفة هى الغالبة فى فترات مختلفة... بعبارة أخرى، إن العمل الفنى لا يقوم بـ ((تشكيله)) المؤلف بل القارئ)) و يعلق ((شتاينر)) على خطورة الاعتماد على

---

(1) Jacques Derrida,: “ Writing and Difference ” trans. Alan Bass (Chicago University of Chicago Press, 1978) , p. 280 .

عن المرجع السابق : ص (٢١٩).

تفسيرات القراء للنص : ((أن ردود أفعالهم تتغير بتغير الثقافة، و كل قراءة جديدة فى وسط ثقافى متغير تنتج رؤية جديدة للعمل. و من هنا فإن دراسة الأدب من وجهة نظر القارئ سوف تأخذ دارسى الأدب إلى نسبية تهدد هوية العمل ذاتها ".[1] أليست تلك هى حالة النقد الأدبى اليوم كما يتناوله كل من رواد التفكيكية و التلقى و التأويل ؟.

٧ – تحتوى التفكيكية على تناقضات لا يمكن حصرها (لانهائية أيضاً)، فتارة نجد دريدا يصرح بأن النقد و التفسير غير مطلق، و فى نفس الوقت نجد بارت يصرح بأن النص يقوم بممارسة عملية تأجيل لا نهائية للمدلول باللعب الحر و المُشتت للدوال، و يرى أنها عملية لا يمكن تمركزها حول مركز أو إغلاقها، و هذا يعنى هروب دائم للمعنى المراوغ، مما يؤدى لتفسيرات لانهائية و لا يؤدى أبداً لتكوين أى معنى. و كيف لا يتناقض هذا مع قول "بارت "نفسه و فى نفس الموضع، عن القارئ الذى يفتح النص و يحركه و ينتجه فى عملية مشاركة للنص لا استهلاك للنص. و نحن نسأل كيف ينتج و يشارك القارئ فى إعادة كتابة ما سبق و قرر"بارت "بأنها عملية لا يمكن تمركزها ؟.

و بالإضافة لهذا أيضاً كيف يمكن تقبل، مقولة "بارت "على النص الأدبى الذى يقاوم عملية تكوين المعنى، و هى مقولة تُشبه العلاقة التى بين النص و القارئ بعملية اللذة الجنسية، فهل نقبل ذلك من باب زيادة فى الفوضى و التوتر و التشتت ؟ أم سيأخذنا بارت لمنعطف آخر ننظر للنص على أنه يغرى القارئ فى وقت و يغازله القارئ فى وقت آخر إلى أن يتم التواصل المفضى؟ و أن صح ذلك فأين نتيجة هذا التواصل المفضى ؟

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٢٠)، و يراجع أيضاً د / بسام قطوس : " استراتيجية القراءة التأصيل و الأجراء النقدى " ص (٣١).

أم هى علاقة مثالية (نقد نصية) – (نقصد باللفظ الشذوذ الجنسى) – علاقة عقيمة ؟ فكيف يستقيم هذا مع القول بالمشاركة فى إعادة كتابة النص. وهذا على سبيل المثال فقط لا الحصر فهناك متاهات و تناقضات تحتاج لبحث خاص للخوض فيها بإسهاب. (١)

٨ – حاربت التفكيكية فكرة المركز و مركزية الفكر و اللغة، و أنتجت فلسفة سميت باللا مركز، و لكن غياب مركز الإحالة قد يحمل التفكيكية مسؤولية ما ترتب على غياب هذا المركز، فغياب المركز مثلاً يعنى رفض مفهوم "سوسير "عن العلامة المغلقة (دال يشير لمدلول حتى و لو بعلاقة اعتباطية حتى و إن لم يُشير إلى شيء خارجى مادى) المهم المركز هنا يؤسس و يحقق شرعية الدلالة، ونجد غياب المركز لدى دريدا (التفكيكية) افقد العلامة شرعيتها و قدرتها على الدلالة، و أجل الدلالة، و حول المدلولات لدالات مراوغة، و فتح المجال للّعب الحر للدوال و للانهائية الدلالة و الانتشار و تفجير المعنى، المهم فتح غياب المركز المجال لجميع الاحتمالات التى تمنع و تُعيق تحقق المعنى، و يصبح تحديد المعنى أمراً غير وارد، و هذا لا يؤدى إلا إلى الفوضى التفكيكية من خلال اللامركزية. (٢)

٩ – نتفق مع الدكتور "عبد العزيز حمودة "، فى النقد الذى ينقله عن "جون إليس "الذى تُركزت دراسته "ضد التفكيكية "على النبرة العالية و الهجومية للتفكيكيين، أكثر من تركيزه على مقولاتهم، التى يراها ليست بجديدة، فهم يكررون نفس الأفكار السابقة، و لكن الجديد فيها هو الصياغة

---

(١) للوقوف على مقولات بارت و آرائه فى هذه الفقرة يراجع،

Roland Barthes, “ The Death of the Author “, Image-Music-text, ed. and trans. Stephen Heath, (New York: Hill and Wang, 1977), p. 164.

(٢) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيكية "، ص (٣٨٥، ٣٨٦)، و يراجع أيضاً د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية " سلسلة عالم المعرفة عدد (٢٧٢) الكويت، أغسطس ٢٠٠١ م، ص (٦١).

فقط، و الأدهى من ذلك هو رفضهم و تنكرهم للتراث السابق و مطالبتهم بحرق المكتبات (قد يكون السبب رغبتهم فى عدم الكشف عن جذور أفكارهم، أو خوفاً من تكشف أمرهم)، و لا يقدمون بدائل لما يرفضونه أو يهدمونه، و يصل بهم التعصب لثوريتهم و تجديدهم للفكر إلى حد التهجم الشرس على كل من يحاول كشف قواعد لعبتهم، سواءً بالتبسيط أو النقد يُتهم بالجهل و التخلف.[1]

فنجد مثلاً قول التفكيكية بموت المؤلف أو انتفاء القصدية، ما هى إلا صياغة ملودرامية، لنفس الفكرة القديمة منذ الشكليين الروس والنقاد الجدد والبنيويون، حيث كانوا يدرسون النص كعمل مستقل مكتفين بتركيبه الداخلى.[2]

١٠ – المنظور الجديد للغة (الخاص بالتفكيكية) على إنها كتابة أولية، و تكمن أهمية هذا المنظور فيما له من أثر ينعكس على مُجمل الفكر و الثقافة الإنسانية، بما تشمله المعرفة الإنسانية، فنجد أن كل ما قدمه دريدا من شروح و مجهودات عديدة ليُقرر ضرورة تخليص الفكر و اللغة من مركزية الكلمة، إنما يعتمد على (يتمركز حول) المفهوم الذى ابتدعه للغة على إنها كتابة أولية، بمعنى أن تبنى المفهوم اللغوى التفكيكى (كمنطلق) هو وحده القادر على تخليص الفكر من مركزيته.

و لكن هذا المنظور الجديد فى الواقع لا يقدم أى علم جديد، و لا حتى علم لغويات متحرر من مركزية الكلمة، و ذلك لأنه بالرغم من تأسيس مفهوم الكتابة الأولية على (اعتباطية الرمز و الاختلاف و الأثر)، إلا أنه لا يمكن الاعتراف به موضوعاً لعلم،لأن هذا الموضوع (الكتابة الأولية) لا يسمح لنفسه بالاختزال إلى شكل من أشكال الحضور، فالحضور هو الذى

---

(١) المرجع السابق : ص (٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) المرجع السابق : ص (٣٩٨، ٣٩٩).

يركب موضوعية الموضوع، و يسمح بجميع علاقات المعرفة التى تتموضع فى الكتابة. (١)

و على ذلك نجد أن جميع الأفكار التى تُشكل أى علم من العلوم تُستمد كلها من نظام الحضور (التَشخُص أو التَمثُل أو التصور الذهنى الواضح لدى الجميع)، بحيث تجعل من حركة الاختلاف فى موضع أو نقطة ما متعلقة بتكون موضوع مستقل متطابق مع ذاته، (و ذلك حتى يتم تكوين علم أو معرفة محددة)، فالموضوعية هى حضور قابل للتكرار (إمكانية التبدى و الظهور المتكرر لأشياء أو مواقف متطابقة مع ذاتها، و هذا لا يمنع من تمييزها عن غيرها من الأشياء أو المواقف المضادة أو المرادفة)، و نقد مركزية الكلمة – نفسه – لا يقوم إلا على تلك المركزية التى يسعى لتحطيمها، لأنه يتضمنها فى التدليل على صحة نقده، فناقد مركزية الكلمة هو نفسه يلجأ لأدلة و أفكار هى مأخوذة عن التجربة (بالمفهوم العلمى لها أى القابلة للتكرار و الملاحظة) دون أن يدرى، و ذلك حتى يتم له التواصل مع غيره و فهم ما يقصده بنقد، أى أنه يظل داخل نفس نظام الحضور أو التناقضات، و لهذا فمن المستحيل عملياً حدوث (أو التوصل إلى) علم جديد للدلالة أو المعنى خارج دائرة مركزية اللغة. (٢)

و بنفس الطريقة نجد دريدا يفكك نصوص الفلاسفة السابقين، منطلقاً من نفس منطقهم ليكشف عن تناقضاتهم، ثم يقلب المعادلة بقلب المنطق ذاته ضد نفسه ليزعزع استقرار النصوص و يقوض ما بها من أفكار، و فى هذا لا يستخدم دريدا سوى منطق يستند لمركزية الكلمة التى يكون قد رفضها عند

---

(١) جون ستروك : " البنيوية و ما بعدها من ليفى ستراوس إلى دريدا "، ص (٢٢٧).

(٢) المرجع السابق : الموضع ذاته ، و للمزيد عن تناقض التفكيكية بالقراءة المزدوجة للنصوص يراجع نفس المرجع، ص (٢٢٨، ٢٢٩ ،٢٣٠، ٢٣٥).

تناوله للنصوص موضوع النقد، و لذلك نجده لا يتورع عن القول بأن نصوصه نفسها عرضة و موضع للتفكيك، فهى كُتبت لتُفَكك بغيرها.

و على مستوى آخر لنقد النظرة التفكيكية للغة على أنها كتابة أولية، نجد "أن فاعلية التفكيكية قد تم تجهيزها بتعبير مثل ((الكتابة)) التى يعتمد مفهومها على مقاومتها لأى نوع من المعانى المستقرة أو النهائية، و إن إطلاق سمة (مفهوم) عليه يؤدى إلى السقوط فى فخ تخيل وجود نظام أفكار هرمى تحتل فيه ((الكتابة)) مكاناً متميزاً، و قد لاحظنا كيف أصبحت البنيوية عرضة لمثل هذا الاستخدام، لأن مفهوم البناء قد تم اختطافه بسهولة من قبل المنهجية السائدة، و التى عاملته باعتباره فكرة تم تنظيمها يدوياً و أهملت تضميناته الغير مستقرة، و"دريدا "يتخذ نفس الخطوات فى إنشاء نظام (بناء) الأشكال (المفاهيم) المختلفة، و التى أوضحها سوسير باعتبارها شرطاً مسبقاً على اللغة، و بمجرد تثبيت الاصطلاح (الكتابة مثلاً) ضمن نظام الإيضاح المقدم، فإنه يصبح مثل (البناء) مُستخدماً بطرق تنفى أو تكبح رؤاه الداخلية الراديكالية".[١]

١١ – حقاً قد تكون التفكيكية غير مقنعة بحالتها تلك (الحالية)، كنظرية نقدية مُفيدة و مُنتجة، و لذلك لابد لها من تحديدها (تحجيمها) لمنهجها الشكى، الذى جعل من أحد مفكريها البارزين ناقداً لهذا التطرف الشكى، "حيث يصفها بأنها ((حالة من عدم الثقة))، و يقول ((إنها ليست حقيقة كما أنها ليست خادعة إنها مشابهة للفرضية الظنية الثابتة))، و يمكن للتفكيكية أن تعلق حالتها التشكُكية حتى تتم مناقشة نتائجها بصيغ إقناعية".[٢]

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق "، ص (٣٨).

(٢) بول دى مان عن المرجع السابق : ص (١١٢).

إذن كان على التفكيكية أن تستخدم الشك كمنهج و لمرحلة محددة، بدلاً من اتخاذه كمذهب، و هذا ما أدى إلى فوضى الدلالة و تفتت المعنى و تفجره و انتشاره.

١٢ – التفكيكية استراتيجية تتعمد الغموض و تجتنب الوضوح عمداً[*]، لأنها ترفض فكرة التواصل، رغبة منها (و كمنهج) لتوسيع دائرة المعنى، أو فلنقل تمويع أو تشتيت المعنى، ظننا منها أن فى تثبيت المعنى جموده و موته، و لا تعبئ بالفوضى و التشتت اللذين يَنتُجان عن لعب الدال و مراوغة المعنى، و هى ترى أن لا قوانين التواصل و لا غيرها يمكنها أن توقف أو تمسك بهذا اللعب".[١]

إن لعب"بارت "بالمعانى هو نفس ما يقوم به "دريدا "فى مراوغته لتحديد مفهوم (لاختلاف) عنده (حيث يصبح غموض الاختلاف لغة ذات قيمة ثمينة)، أنه نصية مطلقة يتم استدعاؤها من أى معنى ضبابى، و تلك النصية ترفض تماماً أى دور للتواصل، لأن دريدا و بارت وجدا أن اللغة تكشف دائماً عن انحرافاتها الكامنة و المكبوتة، و هى لا تستقر فى نظام ثابت للمعنى.[٢]

١٣ – قد يكون للفيلسوف (لودفيج ويتجنستون ١٨٨٩– ١٩٥١م) تأثيراً على الفلسفات الشكية، كالتفكيكية و الفلسفات التى تبحث عن فلسفة تحل محل

(*) جاك دريدا عن " لقاء مع الفيلسوف الفرنسى جاك دريدا " حاور و عربه، عبد العزيز بن عرفة، مجلة دراسات عربية، العدد (٣)، يناير ١٩٨٩م، ص (١٠٤) .

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق "، ص (١١٧)، فمثلاً نجد بارت " الذى يشرك مهارته بالمعانى ذات الإحالات اليومية . و يشير بارت إلى جزئية التحيات البرقية ((الاثنين يعود غداً، جان لويس))، بعد ذلك يبدأ اللعب بجميع احتمالات الغموض المستترة وراء تلك اللغة البسيطة و العملية . (أى جان لويس ؟ أى اثنين تمت كتابة البرقية فيه ؟) و من هذه النقطة يصوغ بارت واحدة من مناقشاته الموسوسة التى تطبع كتاباته.

(٢) المرجع السابق : ص (١١٨).

المعاني، و لكنه كان يرى أن ظاهرة الفصل بين الدال و المدلول تتضمن تناقضاً ظاهرياً يفضي إلى العودة لنفس الأخطاء التقليدية، المتضمنة إعادة توقع ارتباط اللغة مباشرة بالأهداف أو الأفكار. و كأن هذا بمثابة إنذار مبكر للتفكيكية و الفلسفات الشكية من خطورة العودة للربط بين اللغة و الأفكار أو المنطق(١). و هذا هو المأزق الذى وقعت فيه التفكيكية حين قالت بالكتابة الأولية و الآلية، التى بها فقط يتم وجود الأشياء، فهذا الربط المباشر هو ما حذر منه ويتجنستون، و هو سبب توتر و تناقض مثل تلك الفلسفات الشكية.

وعلى ذلك نجد أن نصيحة ويتجنستون للشكاك : "((إذا حاولت أن تشك بكل شيء فلن تجد ما لا يُشك به، إن لعبة الشك بذاتها تفترض مسبقاً وجود اليقين فى ما يُشك به))، غير أن ذلك يعنى تعليق جميع المناقشات على أرضية البداهة التى يصعب عليها مواجهة التحدى التفكيكى "(٢) الذى يقلب البداهة و اليقين إلى شك عارم فى جميع الثوابت الفكرية و المعرفية، لذلك لا تنثر التفكيكية سوى بذور الشك، لتعم الفوضى و التوتر بدلاً من النظام و الاستقرار.

١٤ – إن استبطان المبادئ التفكيكية و استراتيجية عملها يجعلنا نكتشف تناقضها و جدليتها المراوغة، و من هذه المبادئ مبدأ تفكيك الكتابة الذى لا يتم إلا بكتابة أُخرى (و الكتابة هنا سواء بالمفهوم التفكيكى أم بالمفهوم التقليدى)، و كل نص هو كتابة، فإذ كانت فى النص شروخ (و هذا ضرورى)، لأن أصل الكتابة هو الشروخ (الفضاءات و الانفساح الموجود بين الأثر و

---

(١) المرجع السابق : ص (١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤).

(٢) المرجع السابق : ص (١٣٤).

الأثر كفواصل للاختلاف).[1]. و بما أن الكتابة هى الأثر الأول و الاختلاف، و بهذا يكون تفكيك النص هو تقويض للنص من خلال الشروخ التى هى من الكتابة، و هذا يعنى أن التقويض هنا يتم للغة، و النص يمثل نموذج لتركيب لغوى، اللغة (الكتابة) هى المسؤولة عنه و عن شروخه. هذا من جهة و من جهة أخرى، بما أن الكتابة الأولية و الآلية هى التى تسبق و تحدد وجود الفكر و الذات و النص، فإن التقويض و النقد هنا منصب أساساً على اللغة (الكتابة)، و ليس على النص الذى هو منتج من آلتها، النقد و التقويض يمس مباشرة كل من الأثر و الاختلاف و الكتابة الأولية، و على ذلك فلو تم كشف عمليات قمع للمعنى فى النص، أو تم رصد تسلط ميتافيزيقى على المعنى، فإن مرد ذلك كله للغة (الكتابة) فهى إما إنها لا تعمل و لا تُنتج إلا من خلال التمركز الميتافيزيقى، و إما هى ذات طبيعة ميتافيزيقية، و بهذا نكون قد أكملنا الحلقة الجدلية للمتناقضات التفكيكية، و بدون قلب أى من المفاهيم و أيضاً لم نلجأ لأى عنصر خارجى، بل استخدمنا نفس المبادئ و المفاهيم التفكيكية التى هى لذاتها و بذاتها تتخلخل لتتزعزع، قبل أن تسقط.

١٥ - قد لا يكون مقبولاً من تفكيكى مثل دريدا وهو القطب الأساسى للتفكيكية، أن يقول : "أنا لم أقل إنه ليس هناك مركز، أو إننا يمكن أن نستمر دون مركز. إنى أعتقد أن المركز وظيفة، ليس وجوداً **being** ، أو واقعاً **reality** لكن وظيفة، و هذه الوظيفة لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً. الذات لا يمكن الاستغناء عنها مطلقاً. أنا لا أدمر الذات، أنا أعين لها موقعاً (أموضعها)". [2]

---

(١) جاك دريدا : " مشروع التفكيك لدى جاك دريدا " ص (٤٩).

(٢) جاك دريدا : " البنية، اللعب، العلامة فى خطاب العلوم الإنسانية " ص (٢٤٩).

وطبعاً هذا الحديث كان فى بداية ظهور التفكيكية، و هى ما تزال فكرة لم تتبلور بعد فى ذهن دريدا، وهذا يدل على أن دريدا نفسه يتفق معنا فى نقد الأسس التى أقام عليها التفكيكية بعد ذلك، بمعنى إنه قبل خوض التجربة (التفكيكية)، و قبل التبحر فى التشكيك فى المركز و الذات الإنسانية، كان متأكداً من أهميتهما للمعرفة واللغة و الإدراك، فها هو ينقد معتقده عن ضرورة التخلى عن المركز و خصوصاً مركزية الذات، فهل يُعقل أن يفرض علينا وعلى الفكر الغربى والعالمى فلسفة هو أول من يرفضها ؟ للأسف هذا ما حدث، ولهذا سرعان ما أدى فكره التفكيكى للفوضى و التشتت والضياع، و هذا ما سوف ننتقل لبحثه فى الفصل الخامس والأخير من هذا البحث.

التعقيب:

بالرغم من كثافة و تشعب معطيات التفكيكية، إلا إننا حاولنا قدر الإمكان أن نلتزم الحياد و الموضوعية، فى تفسير النقاط التى من خلالها درسنا التفكيكية و علاقتها بكل ما سبقها لنقف على جذورها، و على الكيفية التى تعمل بها استراتيجيتها، أننا خلصنا من بحثها بأن لها فائدة، و بها مخاطر غير محسوبة، و الفائدة تنحصر فى عملية توسيع الأفق من جهة و من جهة أخرى توسيع مجال الدرس الفلسفى، فمع التفكيكية يمكن تناول أى موضوع من أكثر من جهة واحدة، و علينا تقبل وجهات النظر العديدة و المختلفة، لكونها تتكامل مع بعضها لتكوين معرفة أفضل بالموضوع المدروس. و لكن مع ما بعد الحداثة و خصوصاً التفكيكية نجد أنه قد أصبح لدينا قدرة أكبر على توليد و تقبل أفكاراً و وجهات نظر لا يمكن حصرها لأنها لا نهائية، و بالطبع جميعها صحيحة أو خاطئة بحسب تناولنا (أى هى نسبية).

إلا أننا نجد التفكيكية استراتيجية تُرجع التناقضات و نقط العماء فى النصوص التى تفككها للكاتب أو المؤلف، حيث يرونه قد وقع تحت تأثير قمع الميتافيزيقا و مركزيتها الغير مبررة، و فى نفس الوقت نجد التفكيكيون يسعون من خلال التناص و لعب المعانى و أولية و آلية الكتابة لترسيخ فكرة أن نماذج اللغة و تركيباتها هى التى تقول و تخلق المعنى و ليس لنا فيها قصد، فكيف فى لغة النقد و هى التى تحدد و تكون المعنى لا تتحمل مسئولية تناقضات اللغة التى كتب بها النص ؟ أليست هى نفس اللغة التى كُتبت بها نصوص الفلاسفة السابقين ؟ أم أن عملية القمع غيرت من الأمر فجعلت الكاتب هو الذى يملك لغته. و هذا من أهم مظاهر تناقضات التفكيكية خصوصاً فى

نظرتها للغة، فإما أن تسلم بأن اللغة وسيلة للتعبير و التواصل، و إما أن تُبحر مع آلية و أولية اللغة فى بحر من التناقضات التى تفضى إلى التشتت و الفوضى.

و من منطلق تحاشينا للتكرار نكتفى بما سبق و عرضناه فى هذا الفصل، تحت عنوان النقد التفكيكى تحت المجهر، من إنجازات و سقطات التفكيكية، و نختم هذا الفصل بمحاولة حصر لأهم نتائجه، التى تُمثل إجابات على ما طرحناه من أسئلة فى التمهيد.

فقد اتضح لنا من خلال بحثنا فى التفكيكية و علاقة مارتن هايدجر بها الآتى :

١ – أن لنيتشه و أفكاره الأثر الكبير على فكر ما بعد الحداثة، من حيث النظرة للإنسان و المعرفة و اللغة، و خصوصاً التفكيكية بما يمثل الجذور القريبة لفكر ما بعد البنيوية.

٢ – وجدنا كيف تتطابق أفكار مارتن هايدجر مع أسس و مقدمات التفكيكية، و كأنها المنبع و المُوَجه الأخير لما عكسه نقد ما بعد الحداثة من تفكيك و تلقى و ظاهراتية.

٣ – لقد كشفت دراستنا أن البديل الذى تقدمه التفكيكية كاستراتيجية نقدية للذات، هو ليس إعادة الذات لمركز الوجود، بل تقدم حرية كل قارئ فى إعادة كتابة نصه، و تفسيره بالطريقة التى يراها. و هذا يعنى ثقة غير مباشرة من جديد فى قدرات الذات، و لكن تفكيك كل قراءة لما تسبقها، يعنى رفض التفكيكية لتثبيت أى دور للذات كمحور للوجود فى صورة

مركز جديد، مما يؤدى بالنقد إلى جحيم الشك و الفوضى و التشتت النقدى. (١)

٤ - وجدنا كيف تعمُد النقد التفكيكى للغموض و المناورة فى الكتابة النقدية، فوجدناهم ينتجون نصوصاً هى بذاتها تحتاج للتفكيك، فكيف بهم يعتبرونها نقداً لنص أول ؟ أليس أولى بهم أن يعتبرونه نصاً أوحى به النص الأول فقط. إننا نراهم قد سحقوا مبادئ النقد الأدبى، لينثروها مع تشتت و انتشار المعنى فى صورة فوضوية تقضى على النقد و الأدب و المعنى بل و اللغة كأداة، و إن كان هذا من منظور تقليدى.

٥ - وجدنا كيف أن التفكيكية فى أخذها بالتناص لا تنكر المنظور التاريخى، فهى لا تعزل النص كما كان فى البنيوية، فى حين أنه من المفترض لحدوث المعنى فى الصيغة النصية الحالة أن تقطع صلة وحداتها هنا بغيرها من النصوص، لأن الوحدات هنا هى فى علاقتها ببعضها تبنى معنى مغايراً للذى كونته فى نصوص سابقة (و تلك إحدى تناقضات استراتيجية التفكيك).

٦ - كشف لنا بحثنا فى هذا الفصل، أن نظرة التفكيكية للغة على أنها سابقة (لما كونته) و أولية و آلية، تنقض و تخالف واقع اللغة كأداة، و وسيلة تواصل و تعبير عن مقاصدنا، فاللغة كيف تسبق وجودنا و تستقل عنا، و نحن نبحث فى المخزون اللاشعورى عن دال مناسب لنعبر به عن ما بداخلنا، بتركيبات لغوية، أى بوحدات رمزية، و رمزية تعنى أنها إشارية تُشير لشىء، لتعبر باختلافاتها -عن بعضها البعض - عن صور أعلى منها، موجودة فى العقل البشرى(مستمدة من الخبرة الحسية). و الرمزية

---

(١) د / عبد العزيز حمودة : " المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك "، ص (٣٠٨).

هنا تعنى التجرد من المعنى لأنها تحتمل كل معنى، فكيف يكون لها وجود سابق على تلك الصور التى تعبر عنها ؟ أو كيف تحدد هى وجود المعنى و هى ليس العامل الوحيد الذى يساعد على صدور المعنى ؟، فغير الرمزية هناك القواعد النحوية و الأسلوبية، و الألوان الكتابية للصياغات، التى من شأنها مجتمعة أن تحدد المعنى.

٧ – وجدنا كيف تختلف الحداثة كمنهجية تبحث عن العلمية لتحديث العلوم الإنسانية، عن ما بعد الحداثة، بحيث نجد أن كل ما يتجه نحو الفوضى و يأخذ بالشك و ينتهى إلى التشتت و موت الإنسان و اختفاء الحقيقة، و اللا مركزية و اللا نهائية، كل هذا من سمات ما بعد الحداثة، مُعبراً عن حالة التوتر التى نراها فى صيغة سؤال، ماذا بعد الحداثة ؟، فهى استراتيجية لطرح الأسئلة فتتفاقم المشكلة بدلاً من حلها.

٨ – اتضح لنا أنه بالرغم من رفض التفكيكيين لأن يدرج عملهم ضمن الفلسفة، إلا أن توجههم الشكى يقربهم من أرض الفلسفة، و بالرغم من تناولاتهم ذات الخلفية البلاغية، إلا أن عدم محدودية الشك فى استراتيجيتهم تبعدهم عن المنهجية، التى هم يشككون فيها، "و يمكن القول إن قضية هؤلاء، مشابهة لما دعاه الفيلسوف "يورجن هابرماس "بـ ((الفهم المبهم)) حيث أنهم يطالبون بأن تفهم نصوصهم بدقة، أو على الأقل بعقلانية، و بذات الوقت، فإنها تُنكر سطوة اللغة فى الوصول إلى أى هدف".(١)

٩ – وجدنا كم الغموض المتعمد الذى يُحيط بالتفكيكية، لدرجة أن دريدا نفسه يحذر من أن مفهوم التفكيكية و تطبيقاتها تظل عرضة لسوء الفهم،

---

(١) كريستوفر نورس : " التفكيكية النظرية و التطبيق "، ص (١٢٩).

أو عدم الاعتراف بها، و دريدا نفسه لم يتغلب على الشك و لم يتجاوزه إلى القناعة التامة، و يرى أن هناك آراء معارضة تتعلق باللغة و الحقيقة و المعنى، لا يمكن تجاهلها، أو التقليل من محتواها الفلسفى، فالتفكيكية لا تنكر و لا تفكك البديهيات التى تُوجدها اللغة حين تُنتج المعانى. [١]

١٠ - كشف لنا البحث أنه مع التفكيكية أضحت مفاهيم مثل الحقيقة و النظام و العقل و الجوهر، كلها أضحت بلا معنى ؛ بل و فقدت كل قيمة، حتى و القيمة ذاتها أضحت بلا معنى، و لا جدوى من البحث فى مثل هذه المفاهيم، فحلول الفوضى و التشتت أسقط كل هذه المفاهيم التى كانت فى السابق تًعد ثوابت أو بديهيات مسلم بها.

و هذا ما سيتضح أكثر الآن من خلال بحثنا فى الفصل الخامس لعلاقة التفكيكية بالمذاهب الفوضوية و العدمية.

---

(١) المرجع السابق : ص (١٣٠).